TH-1801.10/01

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان

كلية الآداب و اللغات

فسم اللغة و الأدب العربي

Fac/LIT
0172/22

مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر

في تخصص : حضارة عربية إسلامية

عنوان المذكرة

الجانب المعماري في إبان العهد الأموي

من إعداد الطالبة :

- بن نجة سومية

تحت إشراف :

- د. لطيفة عبو

السنة الجامعية : 2010 – 2011

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.

أول من أتقدم لها بعظيم امتناني وتشكراتي للأستاذة المأطرة "عبو لطيفة"، التي أفادتني بنصائحها وتوصياتها القيمة.

كما أتوجه بالشكر إلى كل أساتذة قسم الأدب الذين قدموا لنا يد المساعدة.

وإلى كافة أعضاء اللجنة المناقشة.

كما أتوجه بشكر إلى حكل عمالي بكل استثناء.

وإلى كل من قدم لي العون من قريب أو بعيد لإنجاز هذه المذكرة.

إهداء

أهدى هذا العمل المتواضع إلى أعز ما أملك في الوجود وأروع إنسانة قلبي بحناها الفياض.

ودعواتها وتضحياتها، والتي لا أستطيع رد جميلها ورافقتني بإعاناتها وتوجيهاتها الشديدة في سبيل إنارة المشوار الدراسي أمي العزيزة " حليمة".

والذي كان وقوفه إلى جانبي شرفا ومعزة ونصائحه فخر لي والذي بفضل إعانته المادية لي تمكنت من إنجاز هذا البحث إلى شقيق الوحيد "محمد".

وإلى خالتي فاطمة وزوجها عبد اللطيف وأشكرهما على إعاناتهما لي، وإلى أبنائهما الأحباء: مراد- رشيد- إبراهيم.

وإلى من لها حب عظيم في قلبي الكتكوتة الصغيرة " شروق"

إلى خالي محمد وجلول وخاصة إلى عكاشة الذي ساعدني ماديا ومعنويا

وإلى من ساندتني طوال بحثي هذا وأسدت لي نصائحها وتوجيهاتها إلى الصديقة العزيزة والغالية "خيرة".

إلى الشقيق والأخ وصديق العائلة محمد الأمين.

إلى أعز زميلاتي في الإقامة الجامعية نورية والتي شاركتني همومي وأحزاني وإلى من رافقتني في مشواري الدراسي زميلتي سمية.

وإلى جارتي العزيزة إكرام ومختارية و زواوية وإلى ابن خالتي سفيان.

وإلى صديقاتي في المشوار الدراسي: جميلة، هجيرة، نوال، فوزية، وعائشة.

إهدائي المتميز إلى جدتي متمنيتا لها وافر الصحة والعافية، وإلى روح جدي.

إلى كل صديق صادقني بعمل أو كلمة أو وقفة.

بن نجة سومية

Ledie Lynn

المقدمة

بسم الله والحمد لله يليق بجلاله على نعمة العلم نحمده حمدا بدوام الدهر ونشهد لـــه بالوحدانية في السر والجهر، ونسلم على رسوله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

يقول المؤرخ الإسباني (بول برودل):" أن أعرف أنكم- والكلام موجه للعـــرب عامـــة – تحبون القراءة عن الأندلس وحضارتها لأنكم تحبون البكاء عليه، وأنا معكم في أنكم أســـديتم إلى إسبانيا خدمات كبرى وقلوبكم كلها حزن عليه، ولكن الحزن لا مكان له في العلم..."

وعليه فتاريخ المغرب والأندلس وحضارته، شكل حلقة متميزة من حلقات التـــاريخ العـــربي الإسلامي.

إن العمارة الإسلامية كانت وما تزال تتربع على عرش الفن المعماري ككـــل ســـواء عمارة دينية أو عمارة مدنية أو حربية ولقد تميزت بالمهارة والدقة فضلا عن القيمة التاريخيـــة والجمالية، فهي مركز إشعاع مستديم للحضارة الإسلامية منذ أن توطدت جـــذور الحكـــم الإسلامي، لاسيما في عهد الخلافة الأموية، فبقيامها تبدأ مرحلة جديدة استقرت فيها دعائم الإسلام في الأندلس ورشحت قواعد حضارته.

وانطلاقا من هذا فإن الإشكالية التي تطرح في هذا المضمار هي كالآتي:

- فيما يتجلى الجانب المعماري وأهميته في الحضارة الأندلسية على عهد الخلافـــة الأمويـــة؟ وكيف أثرت في الفن المعماري على المستوى العربي والغربي؟

ومن دواعي اختياري لهذا الموضوع أننا أولى بدراسة فننا المعماري العربي الإسلامي عن العالم الغربي للحفاظ عليه من الشوائب. وإن إعجابي بالحضارة الأندلسية ولاسيما جانبها المعماري هو السبب الرئيسي الذي دفعني لاختيار هذا الموضوع. وإن عظمـــة الآثـــار الإســـلامية في الأندلس تشعرني بمزيج من الفخر واللوعة. ولقد تفردت عمارة الأندلس بميزات خاصة أملتها ظروف عديدة أهمها: نماذج الحضارات وتتابعها في حقيقة تاريخية غير طويلة تميزها عن باقي عمارات الحضارات الأخرى.

ولمعالجة إشكالية هذا البحث سرت على خطى المنهج الوصفي التاريخي، متتبعة خطة منهجية مكونة من فصلين للإجابة على التساؤلات المطروحة مبتدئة بمدخل ولقد جاء الفصل الأول بالعنوان الآتي: العمارة الأندلسية بصفة عامة، وقسم هذا الفصل في حد ذاته إلى ثلاث مباحث:

1- الفتح العربي لبلاد الأندلس.

2- أهم المنجزات العمرانية البارزة.

3- تأثير العمارة الأندلسية على العمارة في البلدان الأخرى حاضرا.

أما الفصل الثاني فقد عنون بـ: العمارة في الحضارة الأندلسية على عهد الخلافة الأموية وجاءت مباحثه على النحو الآتي:

1- نبذة تاريخية عن الدولة الأموية في الأندلس.

2- نماذج عن العمارة في العصر الأموي.

- العمارة الدينية: جامع قرطبة.
- العمارة المدنية: قصر الرصافة.
- العمارة العسكرية: سور قرطبة.

ومن بين أهم الصعوبات التي واجهتني أثناء قيامي ببحثي هذا: قلة المراجع والمصادر واحتكارها من طرف الطلبة، بالإضافة إلى عدم ضبط السنوات المتعلقة ببعض الأحداث التاريخية المعينة، ولقد اعتمدت على بيوغرافية متنوعة مركزة على أهمها: نفح الطيب للمقري، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله غسان.

أما الخاتمة فهي عبارة عن مجموعة من الاستنتاجات العامة حول الموضوع وأملي أن نكون من خلال عرض الفضول وملاحقها قد أضفنا لمسة علمية أكاديمية خدمة للحضارة الأندلسية الإسلامية.

بن نجة سومية

في: 30 جوان 2011م

مدخل

1)تعريف العمارة:

أ- لغة: « يقال: عَمَرَ الله بك مترلك، يَعْمُرُه عِمَارةً، وأَعْمَرَهُ جعله آهلا. ومكان عَامِرٌ: ذو عمارةٍ، ومكان عَمِيرٌ: عَامِرٌ. وعَمَرَ الرجل ماله وبيته يَعْمُرُهُ عِمَارَةً وعَمُورًا وعُمْرَانًا: لَزِمَهُ.

و أَعْمَرَه المكان واسْتَعْمَرَهُ فيه: جعله يَعْمُرُهُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ، واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾، أي: أذن لكم في عمارتها واستخراج قومكم منها وجعلكم عمارها.

والمَعْمَرُ: المترل الواسع من جهة الماء والكلأ الذي يقام فيه: قال طرفة بن العبد:"يَالَكِ من قُبَرَةٍ بِمَعْمَرِ، والعمارة ما يعمر به المكان".

ومنه قول الساجع: أرسل العراضات أثرا يبغينك في الأرض معمرا، أي: يبغين لك مترلا».(1)

ب- اصطلاحا: «المقصود بالعمارة هي الأبنية الفاخرة التي تسمو في أهدافها على ماديات المسكن والمأوى إلى معنويات الجمال والسعادة والكمال.

ويمكن تحديد محورين لتحديد مفهوم العمارة الإسلامية، المجال الأول يعتمد أساسا على العامل الجغرافي، ومن هذا المنطلق فإن العمارة الإسلامية هي مجموع المباني والمنشآت المتواجدة في مدن الإسلام، أو تلك المناطق التي كانت تابعة في يوم من الأيام إلى حاضرة الإسلام كالأندلس وصقيلية.

أما المجال الثاني: وهو التاريخي فإن تاريخ العمارة الإسلامية يمتد من القرن السابع إلى بداية القرن التاسع عشر ميلادي أي منذ ظهور الإسلام إلى بداية القرن الذي سيطر فيه النموذج الغربي في جميع مجالات الحياة وفرض تصوراته السياسية والاقتصادية والفنية».(2)

---

(1): لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت (لبنان) ، ط1، 1997م ج4، ص: 426.

(2): العمارة والفنون في دولة الإسلام، سعد زغلول عبد الحميد، منشأة المعارف (الإسكندرية)، ص: 1- 3.

« وتعد العمارة بمفهومها الحضاري من أكثر النشاطات الإنسانية صلة بتجسيد الواقع الحضاري للأمة، لأنها ذات علاقة جدلية معمقة بتحديد النمط الحياتي، والسلوك الإنساني من خلال تأثيرها الواضح على البيئة البشرية، وعكسها للمفاهيم المادية والمعنوية وللقيم في أي مجتمع من المجتمعات. وقد كانت الأمم جميعها تتميز في كل شيء حتى العمارة، وحاولوا أن يجعلوا طابعا خاصا بهم، بحيث تستطيع تمييز تأثر مجتمع بمجتمع آخر من خلال طرز العمارة وأساليبها وفنياتها.

وإذا أردنا أن نؤرخ للعمارة الإسلامية نجدها قد بدأت منذ الهجرة النبوية إلى المدينة ببناء مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيها امتازت منذ بدايتها بالبساطة وبتكييفها مع حاجات المجتمع الإسلامي، دون أن تتأثر بأي من النماذج العمرانية للأمم المحيطة بها، فبدأت عربية خالصة تستخدم مواد بسيطة تعكس بساطة العيش في تلك الفترة، وأيضا تعكس تجارب العرب قبل الإسلام». (1)

إن العقيدة الإسلامية طالبت المسلمين بضرورة تعمير الأرض، وأكدت على ذلك، إذ حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالعديد من الآيات والنصوص التي تدفع المسلم إلى البناء والتعمير. وكانت عمارة المساجد من أهم وأبرز العمائر الدينية، فالمساجد هي بيوت الله عز وجل حيث أذن أن يذكر فيها اسمه، فأمر الله عز وجل بإعمارها.

ولقد حددت العقيدة معالمها الفنية، وأوضحت خصائصها، ولقد كانت المساجد النواة الأولى للعمارة الإسلامية فهي مكان للصلاة وعبادة الله عز وجل، كما كانت مكانا لمناقشة الأمور السياسية وأمور أخرى وكان ذلك عن طريق الشورى، قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (17) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18) ﴾.(2)

---

(1): تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد عبد القادر خريسات، مؤسسة الدراسات الجامعي (الأردن)، ط1، 2000م، ص: 346-347-348.

(2): ينظر: دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية، نخبة من الأساتذة، مجلة كلية الآداب (العمارة)، دار الوفاء الإسكندرية (مصر)، ط1، 2005م، ج1، ص: 17-18.

« وبشروق شمس دين جديد وهو الدين الإسلامي، ولد الفن الإسلامي وكانت إرهاصاته الأولى في المسجد الذي شيده الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، وقد عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بيده الكريمة في بناء هذا المسجد وعاونه في ذلك المهاجرون الذين هاجروا معه من مكة والأنصار الذين نصروه في يثرب. وكانت قبلة المسلمين في صلاتهم إلى الشمال تجاه بيت المقدس، وبعد نزول الوحي على الرسول صلوات الله عليه أن يتحول من صلاته من الاتجاه نحو بيت المقدس إلى الاتجاه إلى الكعبة المشرفة في مكة. ومن أهم أنواع العمائر الإسلامية نجد:

أولا: المنشآت الدينية: وهي أكثر العمائر الإسلامية القائمة وتشتمل على المدارس والزوايا والأضرحة، وتعتبر أهم أنواع الآثار المعمارية لما تتضمنه من طرز فنية وأساليب معمارية ونقوش زخرفية وكتابية، تعكس روح العصر الذي أقيمت فيه وتعبر عن طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية في هذا العصر. ومن أهم المنشآت الدينية نجد المساجد الإسلامية حيث بدأت بسيطة للغاية، ليس لها شكل محدد ولم تكن منتشرة، إذ أن جميع الأرض هي مساجد للمسلمين وساعد على بساطتها نبذ الإسلام للكهنوت أو رجال الدين لهذا لم يكن هناك من داع لوجود مباني خاصة لهم، ولعل أشهر المساجد القديمة الباقية إلى اليوم هو المسجد الأموي بدمشق ».(1)

« ومن أهم عناصر العمارة في المسجد نجد الأمور التالية:

أ- **الفناء (الصحن):** هو الفراغ المكشوف المحدد بواسطة حوائط، وظهرت هذه الفراغات في أبنية وادي الرافدين ومصر، وظهر لأول مرة في الإسلام في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، وشاع استعماله في المساجد التي بنيت في جميع العصور الإسلامية ».(2)

---

(1): الحضارة الإسلامية، محمد عبد المنعم الجمل، دار المعرفة (الإسكندرية)، د.ط، 2003م، ص: 325-326.

(2): تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد عبد القادر خريسات، ص: 350.

ويتراوح شكل الفناء بين المربع والمستطيل، وزاد اتساعه في عصور بني أمية وبني العباس ليتسع لعدد كبير من المصلين وليخفف من درجات حرارة الجو ودخول التيارات الهوائية الباردة. ويعرف الفناء بأنه هو قلب المبنى وهو يعبر عن القلب في جسم الإنسان وهو جوهر المبنى حيث تطل عليه الحجرات من جميع جهاته بألوانها وزخارفها حول الفتحات والأبواب.

ب- الأروقة: تقام عادة في مقدمة الحجر في الطابق الأرضي والهدف من بنائها توفير مساحات مضللة تحيط بالصحن وتخفيف حرارة الشمس، وتسهيل السير والتنقل فيها وتوفير الحماية من الأمطار شتاءا.

ج- العقود*: عرفت العمارة الإسلامية أنواعا عديدة من العقود، وكانت العقود تحمل من قبل أعمدة من الحجر أو الرخام، وأهم أنواع العقود:

1. العقد الدائري ذو المركز الوحيد.
2. العقد المدبب: وهو عبارة عن مستقيمين مائلين بزاوية معينة يتقابلان فيها ليكونا العقد. ورجلي العقد عبارة عن خطوط رأسية مستقيمة.

د- الأعمدة: عبارة عن جسم مربع ثم أصبح دائريا بتأثير من جذوع النخل إذ كان المسلمون الأوائل يدعمون أعمدة المساجد بجذوع النخل ثم استخدموا الأعمدة الحجرية على شاكلتها، وهي مازالت موجودة في معظم المساجد الإسلامية.

هـ- القباب: جمع قبة ويعود بناء أول قبة في الإسلام إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي بنى قبة الصخرة في القدس سنة 72هـ / 292م، وهي بناء فريد من نوعه مثمن الأضلاع، تتوسطه الصخرة المشرفة ويعلوها قبة شاهقة قائمة على دعامات أربع ضخمة تمتد بين كل منها ثلاثة أعمدة تعلوها أربع عقود، ويحيط بهما ممران دائريان يفصلهما ثمانية دعامات تمتد بين كل وتكسو الدعامات كسوة رخامية ، منها ثلاثة عقود ترتكز عليها طرفين، وعلى عمودين في أوسط فاخرة.(1)

---

(1): ينظر: تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد عبد القادر خريسات، ص: 350-351.

*العقد: هو القوس أو الحنية تتخذ إما شكلا نصف دائري أو نصف دائري تجاوز القط أو نصف دائري منكسر من أعلاه أو مقصوصا أو مفصصا. (ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية "بيروت"، دط، 1971م، ج1، ص: 405).

« كما أن الأعمدة صنعت من الرخام تعلوها تيجان فخمة، ومظهر البناء من الخارج في غاية الفخامة بزخارف هندسية ونباتية وبأشكال زخارف الفسيفساء المذهبة والتي تكسو القبة من الداخل والخارج، ونطالع فيها أشكال المراوح النخلية، وأكاليل الزهور، وزخارف الأهلة والنجود ».(1) ومن أقدم القباب أيضا قبة الأخيضر في العصر العباسي، والقبة الخضراء في قصر المنصور، وهي نصف كروية المضلعة من الداخل وهناك العديد من القباب المضلعة والكروية ونصف الكروية والبيضوية والمخروطية والمقرنصة من الداخل.

و- المآذن: جمع مئذنة وهي بناء يصعد فيه المؤذن ليدعو المسلمين إلى الصلاة من خلال الآذان، وتقع داخل المسجد، وكانت المساجد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين من دون مآذن، وظهرت بشكل واضح في عهد بني أمية، ولعل أقدم المآذن هي التي شيدت في عهد معاوية في جامع البصرة، ومآذن جامع الفسطاط.

واختلفت المآذن في أشكالها فمنها على شكل أسطوانة تقع على قاعدة مرتفعة ومنها ما بني على شكل مربع وإليها تنتمي مآذن مساجد الشام، وبعضها على شكل حلزوني، ولعل مئذنة سامراء الملوية فريدة من نوعها في العمارة الإسلامية، فهي تبعد عن الجدار الشمالي للمسجد حوالي 25 مترا، وهي تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها 32 مترا، وفوقها بناء حلزوني الشكل له سلم من الخارج ملتوي ويؤدي إلى قمة المئذنة التي ترتفع مقدار 50 مترا وبنيت في إيران نماذج جديدة من المآذن لعل أشهرها المثمنة والأسطوانية المزخرفة بالأشكال الهندسية المكسوة بالبلاط المزجج. وتميزت المآذن الفاطمية بأنها أسطوانية الشكل.

ي- المحاريب: جمع محراب ابتكار معماري عربي إسلامي، وقد استخدم في جدار القبلة لتعيين اتجاهها، وبدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي عين مكان محراب مسجد قباء ووضعه بنفسه في مكانه، وكان بسيطا عبارة عن تجويف، وأخذ هذا التجويف في التطور فأخذ يزداد عمقا. والتجويف عبارة عن حنية ذات مسقط دائري كمحاريب الشام، والمغرب العربي أو ذات مسقط من أضلاع متعاقدة مستطيلة حفر عليها شكل محراب، ويحاط هذا المحراب بإطار زخرفي وآيات قرآنية.(2)

---

(1): الحضارة الإسلامية، محمد عبد المنعم الجمل، ص: 328-329.

(2): ينظر: تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد عبد القادر خريسات، ص: 352.

ولعل أقدم المحاريب المسطحة الموجودة الآن، هو في المغارة تحت الصخرة في المسجد الأقصى، أما أقدم المحاريب المجوفة فهو المحراب الموجود في قبة الصخرة في الضلع الجنوبي من المثمن الخارجي للقبة.(1)

ثانيا: المنشآت المدنية: « تشتمل على العمائر الخاصة بالحياة الاجتماعية من قصور ومنازل وحمامات ومصانع وفنادق، بالإضافة إلى أعمال المنافع العامة من خزانات وجسور وقناطر والتي لا تزال آثارها باقية في كثير من المدن الإسلامية ».(2)

« وخير مثال على المنشآت المدنية نجد القصور، حيث تعد ثاني نوع من أنواع العمارة المشهورة في الإسلام، وكانت بدايتها بسيطة لا تتجاوز أن تكون دورا للإمارة في المركز والولايات، ولم تعرف في عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولم تعرف في المدينة في عهد خلفائه الراشدين، بل ظهرت في الأمصار الجديدة التي بني فيها إلى جانب المسجد دارا للإمارة لتدار منها شؤون المصر، إلا أن العصر الأموي بدأ يشهد التوسع والتأنق في إنشاء القصور وظهور ما يسمى بالقصور الملكية، وانتشرت القصور في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية سواء قصور عبد العزيز بن مروان في الفسطاط، أو قصور الأمويين في الشام ولعل أشهرها خضراء معاوية، قصر المشتى، وقصير عمرا، وقصور العراق وخراسان.

وقد أتاحت هذه القصور لفن العمارة بالتطور الفخم والازدهار وخاصة فيما يتعلق بالزخرفة، فإن القصور توسعت في زخرفتها بشكل كبير من فسيفساء وتصاوير ملونة ومنحوتات حجرية أو جسية، من أجل تحقيق أهداف زخرفية أو تصويرية بلغت من التنوع المذهل حدا جعل العديد من الباحثين ولاسيما المستشرقين الذين يشوهون كل شيء يخص الإسلام والمسلمين، حيث أنكروا نسبتها لأصول إسلامية ».(3)

---

(1): ينظر: تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد عبد القادر خريسات، ص: 353.

(2): الحضارة الإسلامية، محمد عبد المنعم الجمل، ص: 325.

(3): تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد عبد القادر خريسات، ص: 354-355.

ثالثا: المنشآت الحربية: « وتشمل الحصون من قلاع وقصاب وأسوار تتحصن بها المدن وترد هجمات الغازين والمعتدين، ونلاحظ أن المدن الإسلامية مازالت تحتفظ بهذه الأسوار والقلاع مثل: دمشق وبغداد وحلب والقاهرة في المشرق العربي، وطليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة في الأندلس وفاس والرباط ومراكش وتلمسان وقلعة بني حماد في المغرب العربي، كما أن أبوابها مازالت تحمل أسماءها القديمة مما ساعد على دراسة طبوغرافية لتلك المدن في العصر الإسلامي ».(1)

« وجدير بالذكر أن العرب لم يهتموا في بداية دولتهم ببناء القلاع والحصون لاعتصامهم بسيوفهم لا بالجدران، لهذا كانت قوتهم العسكرية كافية لحماية مناطقهم، إلا أنهم ورثوا العديد من القلاع في المناطق المفتوحة، وبدأت الحصون بالظهور تدريجيا في المناطق الثغرية التي ظهرت بسبب اضطرار الدولة لحماية حدودها، ثم لما تمزقت الدولة الإسلامية إلى دويلات متصارعة وظهور الأقطار الخارجية التي سيطرت على مجموعة من الأقاليم الإسلامية وخاصة مع الغزو الصليبي مما دفع المسلمين للاهتمام بتحصين المدن والمناطق الإستراتيجية، فظهرت العديد من القلاع في المدن وكذلك الحصون في المناطق الإستراتيجية الخالية من الأبنية.

ولهذا تداخلت العناصر المعمارية لأكثر من حضارة في القلاع الموجودة في العالم العربي، وضم بلاد الشام حيث امتزج الأثر المعماري البزنطي مع الإسلامي، ثم الصليبي فالإسلامي لتكون القلاع أقرب ما تكون إلى متحف يمثل أكثر من حضارة وتبين مدى استفادة كل حضارة من الأخرى ومدى التأثير والتأثر.

ولقد اهتم الأمويون بتحصين المدن الإسلامية وتعميرها بمختلف أنواع الأبنية الحربية، ويذكر المؤرخون أن معاوية أسس مدينة جبلة وأقام لها حصنا خارجا عن الحصن الروماني القديم، وأنه أقام تحصينات في طرطوس، ومرقية وبانياس وهي مدن توجد في سوريا، أما في العصر العباسي فأقيمت القلاع والأسوار من الآجر وفقا للتقاليد العراقية والفارسية ».(2)

---

(1): الحضارة الإسلامية، محمد عبد المنعم الجمل، ص: 326.

(2): تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد عبد القادر خريسات، ص: 355-358-359.

رابعا: الفنون الزخرفية الإسلامية: لقد كانت هناك آراء متباينة حول بعض نواحي الفنون سواء في إطار النحت أو النقش أو التصوير، وما رد هذا التباين يعود إلى مرجعية الفكر الإسلامي ورأيه في بعض أنواع هذه الفنون. ولئن كانت المرجعية لها أثرها في حركة التقييد المطلق فإنها ساهمت في تحديد الأهداف ووسعت في دائرة النشاط في بعض أنواع الفنون وخاصة منها ما يتعلق بحركة العمران والبناء في البيوت والمساجد وغيرها.(1)

أ- العناصر الزخرفية في الفنون الإسلامية:

« اهتم الفنان المسلم اهتماما كبيرا بالعناصر الزخرفية الهندسية والنباتية والكتابية، وذلك للآراء التي دارت حول تحريم التصوير خاصة في الفنون المبكرة من انتشار الدين الإسلامي، فلجأ الفنان إلى الطبيعة وحور من أشكال الزهور الورود والثمار وما ينتج عنها من أوراق وسيقان نباتية إلى زخارف في غاية الإبداع. واستخدم أشكالا عديدة من الخطوط الهندسية التي تتشابك خطوطها ومنحياتها ليشكل منها رسوما بديعية من دوائر ومربعات ومعينات وغيرها من الأشكال الهندسية.

1.الزخارف النباتية: وجد الفنان المسلم العناصر الزخرفية النباتية مجالا واسعا في تنمية مهاراته ومواهبه الفنية، رغم أن الفنون القديمة قد عرفت العناصر والوحدات الزخرفية النباتية المختلفة، واقتبس الفنان المسلم بعض وحداتها إلا أنه أدخل عليها الكثير من التحوير والتجريد مما أفقدها عناصرها الأولى، وطور فيها تغييرا كبيرا أخرجها عن أصولها الأولى وأضاف إليها الكثير من الطبيعة الحية، ومثال ذلك التطورات التي خضعت لها الأوراق النباتية من أوراق الأكانتس وكيزان الصنوبر وعناقد العنب والمراوح النخلية متعددة الفصوص والمختمة والمزهرة، حيث أخرج منها زخارف إسلامية خالصة، فأضفت على الفن الإسلامي ذلك السحر الجذاب والمظهر الرائق الذي جذب الغربيين وجعلهم يقعون تحت سحره وجاذبيته، ويقلدون عناصره ووحداته وتوزيعاته الزخرفية ».(2)

---

(1):ينظر: الوسيط في الحضارة الإسلامية، عماد الدين خليل، فايز الربيع، دار الحامد، عمان (الأردن)، ط1، 2004م، ص: 156.

(2): الحضارة الإسلامية، محمد عبد المنعم الجمل، ص: 312-320.

2. الزخارف الهندسية: « وصلت الزخارف الهندسية إلى قمة تطورها في العصر الإسلامي فقد استخدم الفنان المسلم الخطوط الهندسية والمنحنيات والدوائر ليخرج منها أشكالا هندسية منتظمة، منها الدوائر المتشابكة والمتقاطعة والأشكال المضلعة وأشكال المربعات والمستطيلات التي تتخذ شكل أفاريز طولية وعرضية.

وتبدو عبقرية الفنان المسلم في المزج بين تلك الخطوط والتشبيكات لتبدو متناظرة ومتماثلة في تناسق، وقد أحدث الفنان المسلم تنوعا كبيرا في أشكال تلك الزخارف على الرغم من اقتباس بعض عناصرها من الفنون السابقة، ونرى الفنان المسلم يستخدم الخط العربي كأداة من أدوات الزخرفة، ويستخرج من أشكال حروفه أشكالا هندسية بديعة من العقد والجدائل والضفائر أو أشكال عقود مفصصة تنتج عن تقاطع بدايات ونهايات الحروف أو العبارات، بحيث نرى تلك العقود تتخذ شكلا هندسيا بديعا ينتج من تقاطعها وتداخلها على شكل من الأشكال الهندسية البديعية نراها في النقوش والجدران عن التحف الإسلامية.

3. الزخارف الكتابية: سايرت اللغة العربية الإسلام أينما حل وحيثما انتشر، وقد واكب الخط العربي انتشار اللغة العربية مع امتداد الفتوح الإسلامية في المشرق والمغرب، وكان الخط العربي ينتشر بانتشار اللغة والدين، وقد أصبح الخط العربي عاملا للوحدة الحضارية بين أطراف العالم الإسلامي في حين أصبحت اللغة العربية اللسان الحضاري لكل الشعوب التي دخلت الإسلام، وقدر للخط العربي الذي واكب الفتوح العربية في بلاد المغرب والأندلس أن ينتشر انتشاره في المشرق خاصة بعد أن أصبحت اللغة العربية وسيلة التعبير عن الأفكار الدينية والمادية. وقد اصطلح العلماء على تقسيم الخط الكوفي إلى عدة أنواع منها: الخط الكوفي البسيط، الخط الكوفي المورق، والخط الكوفي المزهر، أما آخر هذه الأنواع وهو الخط الكوفي المضفر ويعرف أيضا هذا النوع من الخط بالخط الكوفي المعقد أو المترابط ».(1)

---

(1): الحضارة الإسلامية، محمد عبد المنعم الجمل، ص: 321-323-324.

4. المقرنصات: « هي أبرز أنواع الزخرفة الإسلامية تتكون من حنايا صغيرة مقوسة تشبه المحاريب يتدلى بعضها فوق بعض في طبقات وصفوف بشكل فني تنحصر بينها أشكال منشورية مقعرة. استخدمت المقرنصات في المباني والعمارة الإسلامية بشكل واسع وأصبحت من أبرز خصائص الفن الإسلامي.

أما فيما يتعلق بأصل المقرنص فقد تضاربت آراء الباحثين وعلماء الآثار حول ذلك، فاعتقدوا أن أصله الحنية الموجودة في أحد أركان المربع الذي ترتكز عليه منطقة الانتقال في القبة، ومنها تطورت المقرنصات في العمارة العربية الإسلامية وقد قسمت إلى مقرنصات مثلثة ومقرنصات مقوسة ، وقيل إن المقرنص لم يكن معروفا قبل الإسلام أنه نشأ وتطور فيها على نطاق واسع، بحيث وجد في كثير من القصور الإسلامية منها: في العراق قصر الأخيضر وقصر المعتصم وسامراء، وفي عمائر إسلامية مثل: مسجد عمرو بن الفسطاط، وجامع أحمد بن طولون، ومن أنواع المقرنصات نجد:

أ- المقرنص المعقود البسيط: اتفق الباحثون على أن الحنايا الركنية والمثلثات الكروية القائمة تحت القبة وهي مقرنصات بسيطة، وقيل بأن المقرنص المركب هو تكرار عن المقرنص البسيط ويتكون من أكثر من صف والغالب أنه يتكون من ثلاث حنايا ذات تدريج بحيث تكون مرتبة فوق بعضها البعض مثل: المقرنص القائم في قصر أخيضر، وأنصاف قباب مغطية لنهايتي المحراب في المسجد.

ب- المقرنصات المركبة من الحنايا المقوسة: هي عبارة عن حليات معمارية مزخرفة تتكون من حنايا فوق بعضها تشبه في ترتيبها خلايا النحل، وهي تكرار عن المقرنصات البسيطة تستخدم في مختلف الأماكن من الأبنية العربية الإسلامية، كالقباب والمآذن والمحاريب والمداخل والنوافذ والسقوف، ومثال عل ذلك: في سوريا قبة الإمام عون الدين، ومقرنصات المباني التي شيدها نور الدين زنكي في دمشق، ويوجد هناك أنواع أخرى من المقرنصات منها ذات الدلايات والمقرنصات المنشورية والمقرنصات الكروية والمقرنصات المطولة ».(1)

---

(1): ينظر: تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد عبد القادر خريسات، ص: 361-362-36

الفصل الأول

المبحث الأول: الفتح العربي لبلاد الأندلس:

ارتأيت أن أعرف قبل أن أتحدث عن الفتح العربي لبلاد الأندلس، ما معنى لفظ الأندلس؟

1/ معنى لفظ الأندلس:

يعني لفظ الأندلس إسبانيا الإسلامية، وأطلق هذا اللفظ في بادئ الأمر على شبه جزيرة إيبيريا كلها على اعتبار أنها كانت جميعها في يد المسلمين، ثم أخذ لفظ الأندلس يقل مدلوله الجغرافي شيئا فشيئا تبعا للوضع السياسي الذي كانت عليه الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة، حتى صار لفظ الأندلس آخر الأمر قاصرا على مملكة غرناطة الصغيرة، وهي آخر مملكة في إسبانيا وتقع في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة إيبيريا.

وكلمة الأندلس اشتقها العرب من كلمة واندلوس وهو اسم قبائل الوندال الجرمانية التي اجتاحت أوربا في القرن الخامس ميلادي، واستقرت في السهل الجنوبي الإسباني وأعطته اسمها، ثم جاء العرب وعربوا هذا الاسم إلى أندلس، وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا سنة 1492م أطلق الإسبان اسم آندالوثيا على الولايات الجنوبية الإسبانية، وهي المنطقة التي تشمل حتى اليوم ولايات قرطبة واشبيلية وغرناطة.

أما لفظ إسبانيا فقد كان المراد به شبه جزيرة إيبيريا بوجه عام بما في ذلك الأراضي الإسلامية والمسيحية على السواء. فهناك إسبانيا الإسلامية أو الأندلس وهناك إسبانيا المسيحية.

وتقع شبه جزيرة إيبيريا في جنوب غرب أوربا، ويحدها من الشرق البحر المتوسط ومن الغرب المحيط الأطلسي، ويفصلها عن فرنسا شمالا سلسلة جبال البرت أو البرتات التي تتخللها ممرات ومضايق تصل بين البلدين مثل: ممر هندايا في الغرب، وممر قطالونيا في الشرق وممر شيزروا في الوسط. ويبدو أن كلمة برت مشتقة من كلمة porte أي باب أو ممر ولكن على الرغم من وجود هذه الممرات، فإن جبال البرتات قد جعلت إسبانيا في شبه عزلة عن بقية أوربا.(1)

---

(1): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية (بيروت)، دط، 1978م، ص: 17.

ولقد استغل المسلمون طبيعة إسبانيا الجبلية في تكوين شبكة دفاعية قوية، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الأنهار التي تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس، خطوطا دفاعية ضد أي هجوم يقع عليها من المسيحيين في الشمال، فأقامت عل هذه الوديان مدن هامة كانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط مثل: سرقسطة وطليطلة، وفي أقصى الجنوب نجد نهر الوادي الكبير الذي تقع عليه عواصم الأندلس مثل: قرطبة، اشبيلية وقادس.

ويعتبر جبل طارق حلقة الوصل بين المغرب والأندلس ويقع هذا الجبل في أقصى جنوب إسبانيا، وكان يسمى الجبل المجوف، ثم أطلق عليه المسلمون اسم الصخرة وجبل الفتح وجبل طارق وفرصة المجاز، واسم جبل طارق هو الاسم المعروف حتى الآن في جميع اللغات نسبة إلى فاتح الأندلس العظيم طارق بن زياد. أما المضيق نفسه فيعرف قديما بأعمدة هرقل نسبة إلى الجبال المحيطة به، وأطلق عليه العرب مضيق جبل طارق طوله 80 كلم، وعرضه حوالي 15 كلم.

إن مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الأندلس ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي أو الاقتصادي بينهما، فكل من القطرين يعتبر منطقة أمان للآخر وامتدادا له في الدم والجوار والأخذ والعطاء وفي الصلات التاريخية والتكوينات الجغرافية والجيولوجية والمواقع الإستراتيجية، رغم وجود هذا المضيق بينهما. ولهذا نشب صراع تقليدي مستمر بين الشاطئين الإفريقي والأوربي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق، والمعروفة باسم العدوتين عدوة المغرب وعدوة الأندلس والعدوة معناها الجانب أو الشاطئ.(1)

---

(1): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 18 إلى 21.

2/ حملة طارق بن زياد*:

أ- أسباب الفتح:

حدث إبان الفتح العربي للمغرب، أن لذريق Rodrigo دوق باطقة وحاكمها بقرطبة، عرش القوط* بإسبانيا من أبناء غيطشة وأثار ذلك نقمة أنصار غيطشة وأبنائه عليه، فهبوا ضد هذا المغتصب الذي انتزع الملك من البيت الشرعي لنفسه، وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس، واشتعلت نيران الثورات في طليطلة وغيرها، وتعذر على وقلة أن يتوجه إلى العاصمة بعد وفاة أبيه غيطشة.

وحاول وقلة أن يسترد عرشه فأخذ جيشا بقيادة عمه ووصيه رخشندش فأسرع لذريق بالسير على رأس جيش كثيف، واشتبك مع جيش رخشندش وهزمه في موقعة كبرى، قتل فيها الوصي وتفرق أتباعه.

أما وقلة فقد فر إلى إفريقية بعد ذلك وأقام عند يوليان حاكم سبتة، وكان ما يزال على ولائه للملك غيطشة. وأمعن لذريق في مطاردة أنصار وقلة بالأذى ففروا من إسبانيا والتمسوا سبيل النجاة إلى أقصى الشمال أو سبتة، ولاذوا بحماية يوليان الذي كان مخاصما للذريق. وبمساعدة يوليان نجح هؤلاء اللاجئون في الاتصال بالعرب، وحثوهم على فتح الأندلس، أملا في استرداد العرش لأميرهم وقلة، اعتقادا منهم أن العرب الطارقين للأندلس لمساعدتهم، لن يكونوا في حاجة إلى استيطانه بعد افتتاحهم له، وأن مرادهم لا يعدوا ملأ أيديهم بالغنائم ثم يخرجوا عنها لأصحابه.(1)

---

(1): ينظر: تاريخ المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية (بيروت)، دط، 1981م، ج2، ص: 263 إلى 265.

* طارق بن زياد الليثي، بالولاء (50-105هـ)، أصله من البربر، وفي الرواية العربية خلاف حول ما إذا كان قام بغزو الأندلس بمبادرة منه أو بناء على أمر موسى بن نصير الذي كان قد ولاه طنجة في سنة 89هـ. (تاريخ افتتاح الأندلس، أبو بكر بن القوطية، تحقيق وتعليق: اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، دط، 1989م، ص: 23).

* القوط: هم من الشعوب الجرمانية المتبربرة. (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت (لبنان)، ط1، 1998م، ج1، ص: 57).

ويعتقد سافدرا أن يوليان كان يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة غيطشة، ولكن يوليان فيما يظهر لم يشأ أن يعلن عداءه للذريق مرة واحدة حتى لا ينقلب عليه فتظاهر بولائه له حتى لا تنقطع إمدادات القوط عنه، وكان يضمر في قرارة نفسه الكيد له.

وفي أثناء ذلك زعموا أن حادثا وقع وقتئذ عجل بالفتح، وكان عاملا في إقدام يوليان على طلب العون من العرب في حماس غريب، فلقد كان ليوليان ابنة على حظ كبير من الجمال اسمها فلورندا، وكان قد بعثها-شأنها في ذلك شأن غيرها من بنات الأمراء والنبلاء- إلى بلاد الملك بطليطلة للتأدب بآداب الملوك، فوقعت موقعا حسنا في عيني الملك، ويقال أنه استكرهها على نفسها، واحتالت الفتاة على إبلاغ أبيها سرا بما أصابها، فغضب يوليان وعزم على الانتقام ورأى ألا عقوبة له إلا إذا أدخل عليه العرب، فبعث إلى طارق قائلا: "إني مدخلك الأندلس".(1)

ولقد بعث يوليان حاكم سبتة رسالة إلى موسى بن نصير يعرض عليه مشاركته في فتح إسبانيا، ويرغبه في الغنائم التي قد يحصل عليها من وراء هذا الفتح، فحينما وصلته رسالة يوليان وجد الفرصة سانحة لتوسيع ملك الإسلام فيما وراء البحر، ومهما يكن من أمر فقد قابل موسى يوليان، ولا يعرف بالضبط ما الذي دار في هذه المقابلة، ولكن يفهم من سير الأحداث أنهما اتفقا على غزو إسبانيا، وتعهد يوليان بتقديم السفن والأدلاء وكل مساعدة ممكنة. ولما اقتنع موسى بهذا المشروع الكبير، كتب إلى الوليد بن عبد الملك* يستأذنه في فتح إسبانيا، فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا، وألا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر، ونزل موسى على نصح الخليفة في اختبار الفتح الجديد.(2)

---

(1): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سليم، دار النهضة العربية،بيروت، دط، 1981م، ص: 67-68.

(2): ينظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقى، دار الفكر العربي(القاهرة)، دط، 1999م، ص: 36-37.

* الوليد بن عبد الملك بن مروان أبو العباس من الخلفاء الأمويين، ولد في سنة 48هـ، وتولى الخلافة عقب وفاة أبيه في سنة 86هـ، واشتهر بولوعه بالبناء والإنشاء والإعمار وهو باني المسجد الأقصى بالقدس توفي في غوطة (دمشق) في سنة 96هـ. (تاريخ افتتاح الأندلس، أبو بكر ابن القوطية، ص: 21).

وتنفيذا لأوامر الخليفة، قام موسى بن نصير، بعدة غارات استكشافية على جنوب إسبانيا لجس النبض، فاستدعى في بادئ الأمر حليفه ومحرضه على غزو إسبانيا الكونت يوليان حاكم منطقة سبتة وقال له: "إننا لا نشك في قولك، ولا نرتاب غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها وبيننا وبينها البحر، وبينك وبين ملكك لذريق حمية الجاهلية واتفاق الدين، فجز إليه بنفسك، وشن الغرة على بلاده، واقطع ما بينك وبينه إذ ذاك تطيب النفس عليك، ونحن من ورائك إن شاء الله". فانصرف يوليان وحشد جيوشه، وجاز في مركبين إلى الأندلس، وشن الغارة على الساحل الجنوبي فسبا وقتل وغنم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيرا، وشاع الخبر في كل قطر فتحمس الناس للغزو.(1)

وفي سنة 91هـ / 710م أرسلت حملة صغيرة قوامها أربعمائة رجل بقيادة قائد بربري، يدعى طريف بن ملوك أو مالك، ويكنى بأبي زرعة. ونزلت هذه الحملة في أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة في موضع بنيت فيه بعد ذلك مدينة صغيرة أصبحت تحمل اسم القائد البربري حتى اليوم جزيرة طريف.(2) « فأغار طريف وجنوده على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة وأصاب سبيا ومالا كثيرا، فتبين لموسى أن ما قاله يوليان عن ضعف المقاومة الإسبانية كان صحيحا، فيعد جيشا كبيرا من سبعة آلاف محارب لغزو الأندلس بقيادة قائده طارق بن زياد نائبه على طنجة ».(3)

ب- انتصار طارق بن زياد في موقعة وادي لكة:

المرحلة الأولى: « اختار موسى بن نصير على الحملة التي أعدها لفتح الأندلس، قائدا من القواد المشهورين بحسن القيادة والبلاء، وهو مولاه طارق بن زياد، وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله أمثال المقري وغيرهم. فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسيا همذانيا، وذهب آخرون إلى أنه كان بربريا، ومنهم من قال بأنه كان عربيا من منطقة صرف وأصح الآراء القائل بأنه كان بربريا، وكان طارق بن زياد جنديا شجاعا، وقائدا بارعا ».(4)

---

(1): ينظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية(بيروت)، دط، 1978م، ص: 14-15.

(2): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (لبنان)، ط1، 1998م، ج1، ص: 59.

(3): دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 15.

(4): تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سليم، ، ص: 71.

وقد فطن موسى إلى مواهب طارق بن زياد، وكان موسى بن نصير يثق بطارق بن زياد كل الثقة بدليل أنه آثره في قيادة هذه الحملة الكبرى على أعظم قواده من العرب أمثال: طريف بن مالك، والمغيرة بن أبي بردة العذري، بالإضافة أن البربر كانوا أكثر معرفة ببلاد الأندلس، فالمغرب والأندلس يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية في آن واحد.

وكان جيش طارق بن زياد يتألف من سبعة آلاف مقاتل، منهم ما يقرب من ثلاثمائة من العرب وأبحرت الحملة من ميناء طنجة بتاريخ 5 رجب سنة 92هـ / إبريل 811م في السفن الأربعة التي كانت ملكا ليوليان، ووضعها في خدمة العرب. وأبحرت السفن بالرجال والخيل بين شاطئي الزقاق تنقل الجنود إلى جبل على شط منيع، وتجمع المسلمون عند جبل طارق أو جبل الفتح، وكان نزول الحملة الإسلامية في ذلك الوقت مناسبا للغاية، إذ أن لذريق كان مشغولا إذ ذاك بإخماد ثورة قام بها البشكنس في بنبلونة، كما اتفق وصول جيش طارق ابن زياد في الوقت الذي كان كثير من سكان الأندلس ساخطين على حكم لذريق الجائر، فوقفوا موقفا سلبيا من الغزو الإسلامي.

المرحلة الثانية: وما كادت تتوافى حشود المسلمين بعد أن تم نزولها أدنى الجبل، حتى بادر طارق ابن زياد بإنشاء قاعدة لجيشه، ومرسى يصل بينه وبين سبتة، وأقام طارق حول الجبل المسمى باسمه سورا يسمى بسور العرب. ثم بعث عبد الملك ابن أبي عامر في فرقة سارت بحذاء الساحل شمالا فاستولت على قرية حصينة تعرف بقرطاجنة الجزيرة، وتقع جوفي خليج جبل طارق، عند مصب نهر يسمى وادي البحر، ثم زحف طارق بن زياد غربا واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة، وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل الجزيرة الخضراء، وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد، وعهد طارق بن زياد إلى يوليان ومن معه من الجند بمهمة حراسة هذه القاعدة، والدفاع عنها في حالة قيام القوط بأي هجوم.(1)

---

(1): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سليم، ، ص: 72 إلى 75.

المرحلة الثالثة: مرحلة الانتصار:

ولقد هزم طارق بن زياد القائد القوطي تدمير، ولما أدرك ولاة القوط في هذه المناطق خطر الزحف الإسلامي، وما قد يؤدي ذلك إلى زوال ملك القوط، أرسلوا إلى تيودوريك ملك القوط الذي كان في بعض الولايات الشمالية لقمع الفتن فيها ويخبروه بخطورة الموقف، فعاد الملك بسرعة إلى طليطلة وأعاد تنظيم قواته.(1)

وذكر مؤرخو العرب مثل: لسان الدين ابن الخطيب وغيرهم أنه جمع مائة ألف مقاتل، وقيل سبعين ألفا، ويجعل ابن خلدون في مقدمته عدد جنوده أربعين ألفا، فلما علم طارق بزحف هذه الحشود الهائلة إليه، كتب إلى موسى بن نصير يستمده ويخبره في الوقت نفسه بأنه فتح الجزيرة الخضراء، وأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به، فأرسل إليه موسى بن نصير مددا من خمسة آلاف من المسلمين وعلى رأسهم طريف بن مالك، وأغلبهم من الفرسان وبهم كملت عدة مع من طارق اثني عشر ألفا، ومعهم يوليان ورجاله وأهل عمله، ثم زحفت جيوش لذريق جنوبا بعد أن انضم إليها أبناء غيطشة وأقرباؤه مكرهين، وضرب لذريق معسكره عند مدينة شذونة، أما طارق فقد سار بعد افتتاحه مدينة طريف نحو الشمال قاصدا قرطبة، واستمر في سيره حتى أدرك نهير البرباط الذي يخترق بحيرة خاندا، ويسميه ابن القوطية القرطبي وادي بكة، أما الحميري وابن عذارى والمقري فيسمونه وادي لكة.

وكان لذريق قد ولى ولدي غيطشة ميمنة جيشه وميسرته غاية في استرضائهما غير أنهما قد أجمعا على الانتقام منه فعزما على خيانته، وفقا لما تم الاتفاق عليه مع يوليان والمسلمين، أما طارق بن زياد عندما علم باقتراب الحرب وقف في جنوده وخطب فيهم خطبته المشهورة: " أيها الجنود البحر أمامكم والعدو وراءكم فأين المفر..."

وهي تعد من أروع الخطب الحماسية. (2)

---

(1): ينظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقى، ص: 38.

(2): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سليم، ، ص: 86-87 .

والتقى الجيشان في يوم الأحد 28 من رمضان سنة 92هـ/19 يوليو سنة 711م أي بعد مضي 83 يوم من نزول المسلمين بجبل الفتح على واد لكة قرب شذونة واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، إذ تراجع جناح لذريق وفق الخطة المرسومة، ونكص عدد كبير من قواد الملك فانكشف قلب جيشه وانهار خط دفاعه من أساسه، واضطر إلى التراجع أمام دفع قوات طارق بن زياد ومن انضم إليها من أصحاب يوليان والمتآمرين على لذريق، وانقض المسلمون على جيش القوط بالقتل، و لم يرفع المسلمون عنهم السيف مدة ثلاثة أيام. أما فيما يخص مصير لذريق فلقد استطاع النجاة بنفسه بعد أن تجرد في خفية من ثيابه الدالة عليه، ويبدو أن طارق لم ينتزع النصر بسهولة حيث فقد عددا كبيرا من رجاله يقرب من ثلاثة آلاف، و لم يبقى من جنوده سوى تسعة آلاف أما القوط فقد ذكر المؤرخون أن المسلمين قتلوا عددا كبيرا من جنوده.

ج- زحف طارق بن زياد إلى طليطلة عاصمة القوط:

أحدث انتصار طارق بن زياد في لكة دويا هائلا في المشرق والمغرب، وكان لابد لطارق أن يجني ثمار جهاده وانتصاره في واد لكة، قبل أن تتجمع جيوش القوط مرة أخرى. فزحف طارق إلى مدينة شذونة وحاصرها حصارا شديدا، ثم فتحها عنوة وغنم منها غنائم هائلة ومن بعد ذلك إلى المادور ثم عطف على قرمونة، ثم اتجه إلى اشبيلية ومنها زحف إلى استجة وكانت تؤلف المركز الأول إلى المقاومة، إذ كانت جيوش القوط قد تجمعت هناك، فقاتلوا المسلمين قتالا شديدا حتى كثر القتل والجراح بين المسلمين وامتنعوا داخل مدينتهم، إلى أن ظفر طارق بصاحب المدينة فأرغمه على الصلح وفرض الجزية، وهكذا هبت رياح النصر على المسلمين وقذفوا أعداءهم بالرعب وكانوا يظنون طارقا راغبا في الغنم عاملا على القفول. وكان جيش طارق بن زياد قد تضخم بمن وفد إليه من أهل العدوة فنصح يوليان طارق بأن يفرق جنده في بعوث جانبية، ويمضي هو إلى طليطلة حيث احتشدت فلول القوط فيفتحها قبل أن يتدارك القوط الأمر، ويحكموا الدفاع عنها. وفعل طارق بنصيحة يوليان ففرق جيوشه من استجة.(1)

---

(1): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سليم، ، ص: 77 إلى 82 .

وبعث وهو في طريقه سرية على رأسها رجل اسمه مغيث الرومي من أحفاده جبلة بن الأيهم الغساني ففتح هذا قرطبة عاصمة المنطقة الجنوبية التي كان الرومان يدعونها باطقة. وبعث جيشا آخرا إلى مالقة قود عليه قائدا ودليلا من رجال يوليان كما بعث جيشا ثالثا إلى ألبيرة. أما طارق فقد سار بمعظم جنوده إلى كورة جيان في طريقه إلى طليطلة، فعبر طارق الوادي الكبير عند منجبار، وسار في طريق روماني قديم كان يعرف باسم طريق هانبال، وهذا الطريق يمر بمدينة جيان ومنتسية، ودخل طليطلة سنة 93هـ دون مقاومة تذكر، فوجد طارق بن زياد المدينة خالية ليس فيها إلا اليهود في قوم قلة، وفر ملكها مع أصحابه ولحق بمدينة خلف الجبل بعد أن ضم اليهود، وخلى معهم بعض رجاله وأصحابه بطليطلة. وفر بنفسه مع أصحابه، فترك طارق فرقة من جنوده في طليطلة ومضى يطارد الفارين من أهل طليطلة.(1) والذين فروا هم كبار رجال القوط والقساوسة من المدينة حاملين معهم ذخائرهم ومن بينها: مذبح الكنيسة الكبرى الذي كان محلى بالذهب والجواهر فتعقبهم طارق بن زياد، وقرب قرية دعاها المسلمون بعد ذلك قلعة عبد السلام في الطريق إلى وادي الحجارة، التقى بهم المسلمون فانتزعوا منهم ذلك المذبح الذي سماه المسلمون "مائدة سليمان"، وكان يعد من أعظم غنائم الفتح.(2)

3/ حملة موسى بن نصير*:

عبر موسى بن نصير مضيق جبل طارق على رأس عشرة آلاف مقاتل من العرب وثمانية آلاف من البربر في سفن صنعها خصيصا لهذا العمل، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان 93هـ / 712م، وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة ثم قرمونة-وهي حصن منيع-فاستولى عليها.(3)

---

(1): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سليم، ، ص: 83 .

(2): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 60.

(3): ينظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقى، ص: 40.

* موسى بن نصير بن عبد الرحمن اللخمي، بالولاء (19-97هـ)، فاتح الأندلس بعد ابن زياد نشأ في دمشق، خدم بني مروان ونبه شأنه فتولى عددا من المناصب من أهمها: خراج البصرة وإفريقيا الشمالي في ولاية الخليفة عبد العزيز بن مروان، وولي عليها واستعمل مولاه طارق ابن زياد على طنجة وما ولاها وأمره بغزو الشواطئ الأوربية، فاحتل الجبل الذي يحمل اسمه في سنة 92هـ . (تاريخ افتتاح الأندلس، أبو بكر بن القوطية، ص: 20).

وفتح اشبيلية بعد حصار دام شهرا، وفتح ماردة بعد عناء سنة 94هـ والتقى موسى بطارق على مقربة من طليطلة، وتشير الرواية العربية إلى أن موسى أنب طارقا بل بعضهم يقول أن موسى زج طارقا في السجن، ولكنه ما لبث أن عفا عنه، ثم اشترك القائدان الكبيران سويا في مواصلة فتح ما تبقى من بلاد الأندلس، وزحفا نحو الشمال الشرقي، واخترقا ولاية أراجون واستوليا على سرقسطة ووشقة ولاردة حتى بلغت شاطئ البحر الشمالي عند حدود فرنسا الجنوبية.

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما، وكانت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق فرجع موسى ومعه طارق، بعد أن خلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير في أواخر سنة 94هـ / 714م، أما ابنه عبد العزيز بن موسى ففتح الجزء الشرقي من الجزيرة، وبذلك تم فتح شبه جزيرة إسبانيا كلها إلا الجزء الشمالي الغربي الذي يسمى جليقية، فكانت هذه البقعة التي تركها العرب لبردها ووعورتها، نواة للدولة المسيحية الإسبانية التي مازالت تنمو وتترعرع حتى طردت العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون.

وهكذا فتحت الأندلس في أربع سنوات من 91-95هـ.(1)

---

(1): ينظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقى، ص: 41.

المبحث الثاني: أهم المنجزات البارزة في الحضارة الأندلسية:

1/ قصر الحمراء:

« اختلفت آراء المؤرخين حول اسم الحمراء فقيل إن الاسم جاء من اسم قلعة الحمراء القديمة التي بني فوقها قصر ابن الأحمر، وقيل كذلك أن إطلاق اسم الحمراء على قصر غرناطة الملكي يرجع إلى احمرار أبراجه الشاهقة أو إلى لون الآجر الذي بنيت منه الأسوار الخارجية، أوإلى لون التربة التي بني عليها والتي تميل إلى الاحمرار بسبب كثرة أكسيد الحديد بها. وقد سميت لهذا السبب بتل السبيكة وفي ذلك يقول الشاعر الغرناطي ابن مالك الرعيني:

تَرَ الأَرْضَ مِنهَا فِضةً فإِذَا اكْتَسَتْ بِشَمْسِ الضُحَى عَادَةً سَبِيكَتُهَا ذَهَبْ.

ومن هنا نرى أنه ليست هناك صلة بين اسم الحمراء، وبني الأحمر، فالأمر لا يعدو أن يكون مجرد مصادفة وتشابه أسماء، فالأول يرجع إلى لون تربة أرضه، والثاني إلى لون شعر جدهم، ولكن لم يلبث الاسمان أن ارتبط كلاهما بالآخر بعد ذلك حتى صار بنو الأحمر والحمراء قلبا وقالبا فاتخذوا اللون الأحمر شعارا لهم في كل حياتهم ».(1)

« تعتبر حمراء غرناطة مقبرة الحضارة الإسلامية، ففيها وضع رجال الفن من مسلمي الأندلس خلاصة فنهم وعصارة ما وصلت إليه عبقريتهم، ومن أهم مزايا هذا الفن الغرناطي أنه فن دنيوي على نقيض فن المرابطين، ففن غرناطة كان يكشف عن حقيقة طبيعية: وهي رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور في التمتع بحاضره والشك في غده، وهكذا كانت الأبنية التي زخرت بها غرناطة قصورا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف في نطاق طبيعي لا مثيل لجماله ونجح عرفاء بني نصر في إحداث تأثير جمالي يصحب فن توزيع الخمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعي بالعمارة. فالحمراء تجلو لنا أروع أمثلة هذا الفن، بل هي تعتبر واحة خضراء في إقليم قاحل جاف تحرقه الشمس، ولا تدع غابة الحمراء التي تحيط بالقصر السلطاني ».(2)

---

(1): مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، أحمد محمد الطوخي، تقديم: أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية)، دط، 1998م، ص: 62-69.

(2): بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، دار الغرب الإسلامي بيروت (لبنان)، ط1، 1992م، ج2، ص: 578-579.

« وكثافة الفروع أي مجال لنفاذ أشعة الشمس،كما أن هذه النسمات المنعشة التي تهز الأشجار فترطب الوجوه المحترقة والماء الذي ينساب بين الصخور، والطيور التي تغرد على الأشجار وبين الأغصان والأفنان-كل ذلك-يجعل من قصر الحمراء قصرا أسطوريا أوجنة الله في أرضه، ويحمل المرء على أن يحيا في عالم خيالي لا يفكر فيه إلا في القصور التي كانت تعيش فيها أميرات ساحرات، وهنا يبلغ الفن الغرناطي الذروة، فقد أعد كل ذلك إعدادا دقيقا لتخدير المشاعر عن إدراك الحقيقة التي لا سبيل إلى التغافل عنها وهي انتهاء دولة الإسلام في الأندلس».(1) إن أول ما تضطرم به مخيلتك، حينما تصل إلى مدينة غرناطة، هو أن ترى ذرة الآثار الأندلسية الفريدة قصر الحمراء، وهو الذي حرف الإسبان اسمه فأصبح يعرف في العالم الغربي باسم Alhambra.

وقصر الحمراء لا يرى من داخل المدينة لأول وهلة، ولكنك تستطيع جزت إلى الميدان الجديد Plaza Nueva. وسرت في طريق نهر حدرة، أن ترى إلى يمينك أبراج الحمراء مشرفة من هضبتها العالية، على مجرى النهر القديم الذي غُطي معظمه الآن. ومن الميدان الجديد، يسير المرء في طريق صاعدة تسمى مرتفع بني غمارة.(2) وتذكر هذه التسمية بدور إحدى القبائل المغربية في هذه المنطقة وهي قبيلة غمارة البربرية، حتى باب القصبة الأول الذي يجابه الزائر يسمى باب الرمان، ومنه تدخل هضبة الحمراء، وهو ليس إسلاميا إنما بناه الإمبراطور شارلكان على طراز عصر الإحياء سنة 1543م، وفي أعلاه نصبت ثلاث رمانات على هيئة مثلث وهو شعار غرناطة المشتق من اسمها، فكلمة غرناطة بالإسبانية تعني الرمانة، وباب الرمان عبارة عن عقد حجري ضخم يقوم طرفاه على عمودين كبيرين. (3)

---

(1): بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 580.

(2): ينظر: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، دار مطبعة المدني (مصر)، ط2، 1997م، ص: 183.

(3): ينظر: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، دار المدار الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط1، 2004م، ص: 252.

« وتبدو من وراء باب الرمان غابة رائعة، تسحرك بأشجارها الباسقة وخرير الماء المتدفق في جوانبه، وشدو البلابل التي تملأ أغصانها وتتفسح أمامك ثلاثة طرق عريضة ، يفضي أولها وهو الأيمن إلى الأبراج الحمراء، والأوسط إلى قصر جنة العريف، والثالث وهو الأيسر يفضي إلى باب الشريعة أول أبواب الحمراء.

والطريق المؤدي إلى باب الشريعة طريق صاعد مجهد صفت على جانبيه المقاعد الحجرية، وقد أنشئ في ناحيته اليسرى قبيل الباب بقليل حوض مستطيل مزخرف نقشت فوقه صور لبعض الأساطير اليونانية، وهو يرجع إلى عهد الإمبراطور شارلكان.

ومن الواجب ذكره هو أن هذه الغابة الفخمة وطرقها العريضة الرائعة هي من عمل الإسبان، و لم تكن موجودة أيام المسلمين، بل كانت هذه الرقعة الشاسعة التي تشغلها الآن، أرضا براحا في أسفل الحمراء، كانت تسمى في ذلك العصر بالسبيكة، وهو اسم يتردد كثيرا في أخبار مملكة غرناطة ولاسيما في عصرها الأخير. وفي منتصف هذا الطريق الصاعد، يوجد ميدان صغير يطل عليه باب الشريعة، وهو أشهر أبواب الحمراء ومدخلها الرئيسي.

يبلغ ارتفاع باب الشريعة نحو خمسة عشر مترا، وقد صنع عقده المزخرف على مثل حدوة الجواد، ونقش على قوسه سطران، كتب فيهما بخط أندلسي متشابك، اسم منشئه وتاريخ إنشائه على النحو الآتي:

"أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبو الوليد بن نصر كافي الله في الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية، فتيسر ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة، جعله الله عزة وافية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية. ويوافق هذا التاريخ (749هـ) سنة 1348م. والسلطان يوسف أبو الحجاج المشار إليه، هو أعظم سلاطين مملكة غرناطة، وقد حكم من سنة 1333-1354م، وهو الذي شيد أجمل وأفخم أجنحة الحمراء"».(1)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 184-186.

« ووراء باب الشريعة مجاز معقود به في الناحية اليمنى محراب وضع فيه تمثال للعذراء، وفي نهايته مصلى أقيم به هيكل. وقد صنعت به لوحة رخامية أشير فيها إلى حصار غرناطة، وتسليمها للمكين الكاثوليكيين في 2يناير1492م، ويلي ذلك درب صغير يتجه غربا، وقد أقيمت على جانبه الأيمن بضعة حوانيت لبيع الصور والتحف الغرناطية. ثم يتجه شمالا وفي نهايته من الناحية اليسرى يوجد باب معقود أطلق عليه اسم باب النبيذ أو باب الشراب، وكان أيام المسلمين يسمى باب غرناطة أو باب الحمراء. وفي شمال هذا الدرب الصاعد، يطالعك ميدان شاسع أطلق عليه الإنسان اسم ميدان الأحباب، ومنه ترى لأول مرة أهم مجموعة من الصروح والأماكن الأثرية التي تضمها قصبة الحمراء ».(1)

فإلى اليمين ترى القصر الذي أنشأه الإمبراطور شارلكان الذي يقع إلى جنوب قصر الحمراء، وهذا الأخير يسميه الإسبان اليوم بالقصر العربي. وهو يتألف من ثلاثة مجمعات شبه مستقلة، وهي المقصورة أو الجناح الذهبي، وبيت السلطان أو جناح قمارش، ثم ساحة الأسود. وكان القسم الأول مخصصا للأعمال الإدارية والقسم الثاني كان مقر السلطان، والقسم الثالث مخصص لأسرة الملك وهو دار الحريم.(2) « وإلى اليسار ترى الساحة التي يطلق عليها اسم القصبة أو الحصن وفي نهايتها البرج الضخم الذي يسمى برج الحراسة وهو من أعظم أبراج الحمراء، وهو يشرف عاليا على مرج غرناطة كله، وهذا البرج هو الذي اختاره الإسبان عند دخولهم لرفع الصليب، وما يزال هذا الصليب الذي وضع في أعلى البرج يوم دخول الإسبان غرناطة قائما في مكانه، وهو صليب خشبي كبير وضع في الزاوية الشمالية الغربية ويطلق الإسبان على قصر الحمراء اسم القصر العربي ويجوز الزائر إليه من مدخل متواضع يقع في مواجهة قصر الإمبراطور شارلكان ويمكن تقسيم أبنية قصر الحمراء إلى جناحين كبيرين: الأول جناح قمارش الذي يضم قاعة السفراء، وبرج قمارش الذي يعلوها وجناح الأسود الذي يتوسطه فناء الأسود ».(3)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 186-188.

(2): ينظر: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 253.

(3): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 188.

– **فناء الريحان**: « والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر، وتتقدمه الساحة المعروفة باسم فناء البركة أو فناء الريحان، أو بهو الريحان، وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان وهو يستقي منها اسمه الحالي. والظاهر أن هذه الأشجار كانت تزرع من قديم على حافة الماء في هذا الفناء، وقد نقشت في زوايا فناء الريحان العبارة الآتية: "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين". والآية الآتية: "**وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ**" ».(1) وتمتاز هندسة هذا البهو بالتناسق الدقيق بين أجزائه وهو يجمع بين المياه الكثيرة والأزهار والرياحين التي تنعكس على صفحة مياه البركة، كما تنعكس العقود الجميلة أيضا في عمق المياه.(2) « ولقد نقشت على الإفريز الرخامي الأوسط لهذا الفناء قصيدة من اثني عشر بيتا ركيكة وبها كثير من الأغلاط، ويرجع ذلك إلى أن كثير من نقوش الحمراء الحالية هي من صنع محدث نقلت بالرسم على النقوش القديمة، تحت إشراف الأثريين الإسبان، وتسربت إليها عند النقل أغلاط كثيرة وهذا مطلع القصيدة المشار إليها:

تَبَارَكَ مَن وَلاكَ أَمْرَ عِبادِه ... فَأَوْلَى بِكَ الإِسلاَمُ فَضْلاً وَأَنْعَمَا

فَكَمْ مِن بَلْدَةٍ لِلْكفْرِ صَبَحَتْ أَهْلَهَا ... وأَمْسَيَتْ فِي أَعْمَارِهِم مُتَحَكمَا

ومنها عن يمين الباب الشمالي المفضي إلى البهو المجاور:

وَلاَ خَيْرِ الإِسْلاَمِ فِيمَا يُرِيدُهُ ... لِمَا اخْتَارَ إِلا أَنْ تَعِيشَ وتَسلَمَا

لَقَدْ لاَحَت أَنْوَارُ الجَلاَلِ بِبَابِكَ ... يَغْتر مِنهَا النَدَى بُشْرًا وَأَنْسَمَا

وتِلكَ آثَارُهَا فِي كُل مَكْرَمَةٍ ... أَبْدَى وأَوْضَحَ بُدرٍ إِذا انْتظَمَا

وعن يسار الباب:

فَيَا ابن العُلَى والحُلْمِ والبَأسِ والنَدَى ... ومَنْ فَاقَ آفَاقَ النُجُومِ إِذَا انْتَمَا

طَلَعْنَ بِأُفُقِ المليكِ رَحمةً ... لِيجْلُو ما قد كان بالظُلمِ أَظْلَمَا

فآمنت حتى الغُصنِ من نفْحَةِ الصبَا ... وأَرْهَبَتْ حَتى النجوم في كبد السَمَا».(3)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 189.

(2): ينظر: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 253.

(3): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 193.

« وقد نقشت فوق الأبيات المذكورة وتحتها عبارة "ولا غالب إلا الله" باستمرار، وفي النهاية الجنوبية لهذا البهو يوجد باب عربي ضخم، هدمت الأبنية التي كانت من ورائه، ولم تبق منها سوى بقية خربة وتوجد في هذه الأطلال بعض النقوش منها: "ولا غالب إلا الله"، "عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله". ويظن أن هذه الأطلال هي بقية الجناح السلطاني الخاص، وهو الذي هدمه الإمبراطور شارلكان فيما بعد يفسح مكان لقصره الذي ابتناه إلى جوار الحمراء.

ويفضي باب فناء الريحان الشمالي إلى بهو صغير يسمى بهو البركة به قبلة زينت بنقوش جميلة، وقد نقش على جانبها الأيمن ما يأتي:

أنا مَحْلاَةُ عروسٍ ذات حُسن وكمَالٍ
فانظر الإبريقَ تعْرِفُ فضل صِدقٍ في مقالٍ
واعتبر تاجِي تجِدُهُ مُشبِهًا تاج الهلاَلِ
وابن نصر شمسُ فَلَكٍ في ضياءٍ وجَمالٍ
دَامَ في رَفعةِ شَأنٍ آمِنًا وقتَ الزوالِ

وعلى جانب القبلة الأيسر ما يأتي:

وأنَا فَخرٌ لصلاةٍ سَمَتْ السَعادَةُ
تَحسَبُ الإبرِيق فِيها قَايمًا يَقضِي عِبادَةً
كُلما تفرغ مِنها وحَفتْ فيها الإعَادةُ
وبِمولايَ ابن نَصرٍ شَرَفُ الله عِبادَهُ

– **بهو السفراء**: ويقضي هذا البهو الذي يلي فناء الريحان، من الناحية الشمالية إلى أعظم وأفخم أبهاء الحمراء وهو البهو المسمى بهو قمارش، أو بهو السفراء وبهو قمارش هو أعظم أبهاء الحمراء، من حيث سعته وارتفاع قبته الشاهقة، وهو عبارة عن مستطيل مساحته نحو ثمانية عشر مترا في أحد عشر ».(1)

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 194.

« وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون مترا، وقد حفرت زخارفه على شكل النجوم، وزخرفت الجدران على نفس الطراز، وفي هذا البهو كان يعقد مجلس العرش، ويعلو بهو السفراء برج قمارش، وهو مستطيل في مثل مساحته.

وقد بدأ بإنشاء قصر قمارش السلطان أبو الوليد إسماعيل في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي وأكمله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج ».(1) « تختبئ ذكريات مريرة في قلوب أصحابه من سلاطين غرناطة، وعذبة على قلوب الذين أصبحوا فيما بعد أسياده. ففي القاعة الكبرى تم الاتفاق على تسليم غرناطة إلى فرديناند وإيزابيلا، وفيها سمع أبو عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة تحذير أمه من مغبة الخلاف والشقاق والضياع الذي يمكن أن يؤدي إليه السير في سياسة المنازعات الداخلية، وتقع أنظار الزائر في أعلى البرج على مناظر محملة بالذكريات الأليمة حيث يستوقف النظر أحد التلال البعيدة الذي وقف فوقه أبو عبد الله، وهو في طريقه إلى المنفى، وألقى منه النظرة الأخيرة على قصر الحمراء، وتنهد وذرف دمعته المشهورة، فأصبح المكان يعرف باسم زفرة العربي الأخيرة، وهناك قالت له الأميرة عائشة: "أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال"».(2)

« ولقد أنشأ يوسف أبو الحجاج برج قمارش وبهوه، وأنشأ جناح الحمامات السفلي القريب منه، وأنشأ ولد محمد الغني بالله بهو البركة، وأروع ما في بهو قمارش زخارف قبته، التي لبثت محتفظة بنقوشها الأصلية. أما نقوش الجدران، فإن مع جمالها ليست إلا تجديد مقلد لنقوشها القديمة قام بها الفنانون الإسبان، وقد نقشت في عقد باب بهو السفراء العبارات الآتية: "الحمد لله على نعمة الإسلام"، "عز لمولانا أبو الحجاج عز نصره"، ونقشت الأبيات الآتية في جانب العقد الأيمن بعد عبارة "الحمد لله":».(3)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 196.

(2): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 254.

(3): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 196.

« فُقْتَ الحسانَ بحليَتي وتَاجِ وهَوَت إلي الشُهب في الأَبْراج

يَبدُو إناء المَاء فيَ كعابدٍ في قبلة المحراب قام يُناجِ

ضَمنتْ على مر الزمان مكَارِمي ذي الأَوَامِ وحاجة اختاجِ

فكأنني استقْرَيتُ آثارَ النَدَى من كفِ مولانا أبي الحَجاجِ

لازال بدرًا في سمايَ لايحًا ما لاحَ بدر في الظلام الدَاجِ

ونقشت الأبيات الآتية على جانب العقد الأيسر بعد عبارة "الحمد لله":

رَقمتُ أَناملَ صَانِعي ديباجِي من بعد ما نظمتْ جواهرُ تاجِ

وحكيت كرسي العروس وزِدتُه أنني ضمنت سعادة الأزواجِ

من جاءني يشكُو الضَمَا فمَوْرِدي صرف الزلاَلِ العذب دون مَزَاجِ

فكأنني قوس الغمام إذا بدَا والشمس مولانَا أبو الحجاجِ

ونقش في الدائرة العليا للبهو العبارة الآتية مكررة باستمرار: "عز لمولانا السلطان أبي الحجاج". ونقشت في أسفل مدار القبة بحروف بيضاء نص سورة تبارك كلها فأولها: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ، الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ** ﴾ ونهايتها: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ** ﴾.

وتقرأ في جدار المشرفية وهو الجدار الشمالي للبهو هذه العبارة منقوشة في أعلاه: "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين نصره الله" مكررة مرارا. ثم تقرأ كذلك هذه العبارة في الدوائر العليا لجدران البهو مكررة "عز لمولانا السلطان الملك المجاهد أبي الحجاج عز نصره"، ونقش في محيط البهو بكثرة ظاهرة بشعار بني نصر: "ولا غالب إلا الله"» (1)

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 197.

« ونقشت الأبيات الآتية في إحدى فجوات القبلة السفلى:

تُحيِيكَ من حين تصبح أو تُمسي تَغُور المُنى واليُمن والشعرُ والأُنسِ

هي القبة العليا ونحن بناتها ولكن لِيَ التفصيلُ والعزُ في جنسِي

ونقشت في الفجوات الأخرى مقابل هذه الأبيات العبارة الآتية: "النصر والتمكين المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين أيد الله أمره وعز نصره".

ويفضي بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلي يعرف بفناء السرو، وقد زرعت فيه بالفعل بعض أشجار السرو، وليس لهذا الفناء أهمية أثرية تذكر، فهو من صنع الإسبان، وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية، وهو عبارة عن عدة حمامات رخامية تتخللها أبهاء صغيرة، ومازالت بها أماكن الأحواض ظاهرة، وكذلك أماكن الصنابير، ولا يخلو هذا الجناح أيضا من بعض النقوش، فمنها عبارة: "ولا غالب إلا الله"، "والله عدة لكل شدة"، "والنصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين". وفي نهاية هذا الجناح من الداخل نقشت في فجوة صغيرة من الرخام قصيدة من ستة أبيات أولها:

أَعجبُ شيءٍ حادثٍ أو قديم مَرَابِضَ الأسد بين النَعيمِ

وآخرها:

من كأبي الحجاج سلطانا لازال في نصر وفتح عظيم

– **قاعة الأختين**: وتقع شرقي قاعة فناء البركة قاعة الأختين وتصل إليها من باب الفناء الشرقي من رواق طويل مظلم، وقد سميت بهذا الاسم-قاعة الأختين-لأن أرضها تحتوي على قطعتين متساويتين من الرخام فريدتين في ضخامة الحجم، وقد نقش عند مدخله بالكوفية: "ولا غالب إلا الله" مكررة، ونقشت هذه العبارة أيضا حول جدرانها في أسفل وأعلى، ونقش تحتها هذه الأبيات وهي مقتبسة من قصيدة لوزير بن زمرك الشهيرة في وصف الحمراء وهي:

تَبيتُ له خُنسُ الثريَا مُعيذَةٌ ويصبح مُعتلَ النَواسيمِ رَوَاقيَا

فبين يدي مولاي قامت لخدمة ومن خدم الأعلى اسْتَفَاءَ المَعاليَا.» (1)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 198.

« وكذلك نقشت على الجدران هذه العبارة مكررة: "النصر والتمكين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين".

– **فناء الأسود:** وتفضي قاعة الأختين من بابها الجنوبي إلى أجمل وأشهر أجنحة الحمراء، ألا وهو فناء الأسود أو بهو الأسود وما إليه.

وقد قام بإنشاء هذا القصر أو هذا الجناح الذي يسبغ على الحمراء أكبر قسط من الروعة والفخامة والبهاء، السلطان محمد الغني بالله الذي تولى العرش في سنة 755هـ-1354م وتوفي سنة 793هـ،-1391م والذي مازال اسمه ماثلا في مواضع كثيرة في هذا الجناح.

ويعتبر فناء الأسود أو كورة السباع بطرازه المصقول وقبابه المضلعة وأعمدته الرشيقة، وزخارفه البديعة ونافورته الفريدة التي تحملها الأسود، أروع أجنحة الحمراء وأوفرها رواءا وسحرا، وهو عبارة عن فيناء مستطيل مكشوف طوله خمسة وثلاثون مترا وعرضه عشرون تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات وأروقة ذات عقود، تحملها مائة وأربعة وعشرون عمودا من الرخام الأبيض، صغيرة الحجم متناهية في الجمال والرشاقة، وعليها أربع قباب مضلعة، تقع كل واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل، اثنان منهما تتقابلان شرقا وغربا، والأخريان تتقابلان شمالا وجنوبا، وهي متماثلة الصنع والزخرفة، ويحمل كل منهما عدد متماثل من الأعمدة. وفي وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة، وهي عبارة عن نافورة ماء يحمل حوضها المرمري المستدير الضخم، اثنا عشر أسدا صفت على شكل دائرة، ونحتت من الرخام الأبيض الذي اسمر بمضي الوقت، وهي ليست بارعة المطابقة ولكن تبدو عليها مخائل التوتب والشجاعة.

وتوجد في فناء الأسود طائفة من النقوش التي كتبت بالخط النسخ أو الكوفي الجميل على الجدران والأعمدة والنافورة منها:

نقش شعار بني نصر "ولا غالب إلا الله" بالنسخ والكوفي في الجانب القبلي وراء الأعمدة وفوق رأس كل عمود من الأعمدة التي تحمل القبة. »(1)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 199-200.

« وكذلك على رؤوس جميع العمد الأخرى، ونقشت العبارة الآتية على كل عمود ثان: "عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله"، ونقش على الأعمدة التي تحمل القبة المواجهة أي القبة البحرية "ولا غالب إلا الله". ونقش على رؤوس الأعمدة في المجموعتين الأخريين "عز بمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله". ونقش في الداخل، وراء القبة في صدر البهو الصغير الذي يلحق بالفناء من الناحية البحرية العبارات الآتية: "أبو عبد الله أمير المسلمين"، "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير المسلمين"، "ولا غالب إلا الله". ونقش على رؤوس مجاميع الأعمدة التي تزيد عن اثنين ما يأتي: "عز لمولانا السلطان العادل المجاهد أبي عبد الله الغني بالله".

وإلى جانب هذه الأدعية التي تشيد بذكرى منشئ هذا الفناء، قد نقشت قصيدة رائعة فوق دائرة صحن النافورة التي تحملها الأسود، تضم اثني عشر بيتا وهي من نظم الوزير بن زمرك، ومنها أبيات وردت في قصيدته في وصف الحمراء:

تَبارَكَ من أعطَى الإمَام محمَدًا ... مغَانِي زانتْ بالجمال المَغَانيَا

وإلا فهذا الرَوْضُ فيه بَدَايعٌ ... أبى الله أن يُلقى لها الحُسن ثَانيَا

ومنحوتَةُ من لؤلؤ شقَ نُورُهَا ... تحلى بمَرفَضِ الجَمانِ النَواعيَا

يذُوب لَجينٌ سال بينَ جوَاهرٍ ... غدَا مثلهَا في الحسن أبيضَ صافيَا

تَشابَهَ جارُ للعُيونِ بجامدٍ ... فلم ندْر أيا منهما كانَ جاريَا

ألم تر أن الماء يجْري بصَفحِهَا ... ولكنها مَدَتء عليه المَجاريَا ».(1)

– **قاعة بني سراج**: « وفي منتصف الناحية الجنوبية من بهو الأسود، يوجد مدخل قاعة بني سراج، وهو اسم الأسرة الغرناطية، التي لعبت دورا كبيرا في أحداث غرناطة الأخيرة. وقد حمل البهو هذا الاسم بعدما راجت أسطورة نكبة بني سراج في البهو المذكور أيام السلطان أبي الحسن علي بن الأحمر، وابنه أبي عبد الله. وتقول هذه الأسطورة أن عميدهم محمد بن سراج حاول مساعدة عائشة الحرة مع ولديها للفرار من برج قمارش. »(2)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 202.

(2): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 257.

« حيث كانت مسجونة بأمر زوجها السلطان أبي الحسن علي، بتأثير زوجته الثانية (ثريا)، ولكن المحاولة كشفت فانتقم السلطان من بني سراج، ودبر مؤامرة لاغتيالهم، نفذت في الحمراء، فقتلوا في هذه القاعة واحدا اثر الآخر. »(1)

« وهذه القاعة عبارة عن مستطيل مساحته نحو اثني عشر مترا في ثمانية، غطيت أرضه بالرخام المرمري وفوقه قبة عالية مضلعة الدائرة، وفي جوانبها كوات صغيرة هي التي تمد القاعة بالضوء. وفي كلا الجانبين الأيمن والأيسر عقد عربي بديع، وقد زين عقد الباب وهو من الخشب المعقود بزخارف عربية جميلة، وحفرت في داخل دائرة القبة مقرنصات مثلثة، ليست هي زخارفها الأصلية بل هي من صنع الإسبان، وترجع إلى القرن الثامن عشر، وقد نقشت في دائرة القبة الوسطى عبارة: "ولا غالب إلا الله" بالنسخ والكوفي، ونقش في دائرتين في الجهتين اليمنى واليسرى هذا البيت وهو من نظم ابن زمرك:

فتحسبها الأفْلاَكُ دارت قَسيَهَا تظل عمود الصبح إذْ لاَحَ بَاديَ

ونقش في جدار الصدر في مواجهة الداخل هذان البيتان، وهما أيضا من نظم ابن زمرك:

تَبيتُ له خُنسُ الثريا مُعيذَةٌ ويصبح معتَل النواسيمِ رَواقِيَا
وتَهوي النجُوم الزُهوَ لو ثَبتَت به و لم تَكُ في أفق السماء جَوارِيَا

وفي وسط قاعة بني سراج حوض نافورة مرمرتي مستديرة، وفي قاعه بعض بقع داكنة ثابتة تزعم الأسطورة أنها آثار من دماء أسرة بني السراج الذين دبر لهم السلطان كمينا، واستدرجهم إلى الحمراء، ودبر لمقتلهم في هذه القاعة واحدا إثر الآخر. وقد كان لهذه القاعة منفذ آخر مواجه لمدخلها فسده الإسبان بالبناء. »(2)

---

(1): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 257

(2): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 203.

- **قاعة الملوك**: « وفي الناحية الشرقية لفناء الأسود مدخل القاعة التي تسمى قاعة الملوك، أو قاعة العدل، ومدخلها عقد بديع مثلث الجوانب وبها ثلاثة عقود أوحنايا، رسمت في سقف الحنية الوسطى منها صور عشرة سادة مسلمين يلبسون العمائم، ويجلسون على وسائد ولهم لحى، وهيئاتهم تشع بالوقار والعزة، ويرى بعض الباحثين أن هذه صور ملوك غرناطة العشر، الذين سبقوا أبي عبد الله في تولي العرش، أولهم محمد الغني بالله وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبي عبد الله. ونقشت في سقفي الحنيتين الأخريين صور فرسان ومناظر فروسة ومناظر صيد يطارد فيها دب وخترير. ومن المرجح في شأن هذه الرسوم أنها من صنع بعض الفنانين النصارى، وقد رسمت قبل سقوط غرناطة في القرن الخامس ».(1)

وإذا ما أرجع المرء البصر القاعات والطراز الفائق الأبهاء قصور الحمراء وروعة الأضواء وروميضها، وصور آلاف الزخارف والرسوم التي تثير الإعجاب، يشعر أنه انتقل فعلا إلى عالم الأحلام، غير أن أضغاث الأحلام هذه تتلاشى سريعا عندما يرى ويفهم حقيقة هذا البناء، وأن كل أجزائه تعمل في تناسق تام مع مجموعة البناء الكاملة، ولابد أن يدرك أن المهندس المعماري الذي شيد هذه القاعات وبقية الأبهاء يجب أن يكون أستاذا ماهرا حتى يجعل الطبيعة تشكل جزءا من البلور، واستطاع هذا الأخير أن يجمع في حركة موفقة كل العناصر المتباعدة في تأليف هندسي بديع وفي وحدة معمارية متناسقة.(2)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 204.

(2): ينظر: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 255.

2/ قصر جنة العرّيف:

بخلاف قصور الحمراء ترتفع عدة تلال بحيث تشرف على وديان نهر حدرة ونهر شنيل، وتستقي هذه التلال من مياه نهر حدرة عن طريق القنوات والحنايا والنواعير والأنابيب التي تخترق الوديان، وبذلك أمكن إنشاء جنات فيحاء تحيط بدور اللهو التي كان يشيدها أمراء المسلمين، وقد زالت كل هذه الجنان، حيث كفت المياه عن الوصول إلى تلك الدور إلا في جزء أقل ارتفاعا ولكنه أكثر خصبا وهو جنة العريف الذي سوف نفصل في الحديث عنه.(1)

– **تاريخ تشييده:** شيد هذا القصر في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي) ثم جدد على يد السلطان أبي الوليد إسماعيل (714هـ-1314م/726هـ-1325م).

– **أما موقعه:** فهو يقع على ربوة عالية بالقرب من قصر الحمراء في ركن منعزل في شمال شرقي الهضبة، ويطل على قصر الحمراء وتبدو من ورائه قمم جبال سييرانيفادا الشاهقة المزينة بالثلج والظليلة كالغمام.(2)

« تصل إلى قصر جنة العريف من طريق طويلة صاعدة تظللها الأشجار الباسقة، ثم تجوز إلى أخرى تظللها أشجار السرو المتلاصقة، وتقطع في الطريقين من الحمراء إلى قصر جنة العريف زهاء ستمائة متر.وقصر جنة العريف عبارة عن صرح أنيق المنظر، ولكن هذا القصر لم يحافظ على أصالته العربية كما هي حال الحمراء بسبب التعديلات التي أدخلها عليها الملوك الإسبان، لاسيما إيزابيلا التي أنشأت طابقا علويا فوق الجزء الإسلامي السفلي. » (3)

« وتدخل إلى قصر العريف من مدخل بسيط متواضع، وقد نقشت سورة الفتح على لوحة خشبية كبيرة تحيط بالجزء الأعلى من رواق المدخل، وهذا ما يدل على أن المسلمين هم الذين شيدوه، ويفضي هذا المدخل إلى ساحة فسيحة، يبلغ طولها خمسين مترا وعرضها ثلاثة عشر مترا. » (4)

---

(1): ينظر: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 591.

(2): ينظر: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، أحمد محمد الطوخي، ص: 63.

(3): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 211.

(4): ينظر: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 258.

« وعلى جانبها رواقان ضيقان طويلان، وفي وسطها بركة ماء، وفي جميع جوانبها نوافير شيقة وقد غرست حولها الرياحين والزهور الساحرة. وفي صدر هذه الساحة مدخل ذو ثلاثة عقود عربية جميلة الزخرف، وقد نقشت في مربعاتها القصيدة الآتية، ولقد شوهت معظم أسماء الشعراء وحذفت بسبب الترميمات التي قام بها الأثريين الإسبانيين فيستحيل ذكرها:

قصْرُ بديع الحُسنِ والإحسانِ ... لاَحتْ عليه جلالة السلطانِ

راقَت محاسنه وأشْرقَ نوره ... وهَمتْ سحَائبُ جوده الهتَانِ

رقَمتُ يد الإبدَاعِ في أَرجَائه ... ومَشيَا كمثل أزهار البستانِ

فكأن مجلسهُ العروس تبَرجتْ ... عند الزفاف بحسنها الفَتانِ

وكفاه من شَرَف رفيع القَدر أَن ... نال اعْتنَاءَ خليفة الرَحمَنِ

خير الملوك أبو الوليد المُنتَقَى ... مِن نخبَةِ الأملاك من قَحْطَنِ

كما نقشت آية الكرسي في الجزء الأعلى من هدا العقد، ويفضي هذا المدخل إلى بهو كبير يماثل البهو الذي يقع بجوار المدخل وتوجد ثمة نقوش عديدة متفرقة فوق أعمدة العقود وفي عقود النوافذ وفوق الجدران، وفي دوائر صغيرة منها: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، "ولا غالب إلا الله"، "العز القائم الملك الدايم لله"، "الغبطة المتصلة"، "الحمد لله على نعمة الإسلام"، "الملك لله وحده"».(1)

« إن ملوك بني نصر لم يقصدوا أن تكون هذه المنشآت مكانا للراحة فحسب –نقصد قصر جنة العريف وقصر الحمراء- بل أشبه ما تكون بشيء سماوي بعيد عن ضجيج العالم، لهذا أقاموها فوق قمة ذلك المرتفع الصخري حتى لا يصل إليها أي صوت أو صخب أرضي، وحيث لا يستطيع أي دخان أن يعكر صفو هوائها وطيبته ونقائه، فضلا عن المفاتن التي أضفتها الطبيعة على هذه القصور الملكية هذا يدل على خصب فكر هؤلاء المعماريين الإسلاميين ».(2)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 212.

(2): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 258.

وإنه بعد الفتح المسيحي لغرناطة تعرضت الحمراء لكثير من التغيير والتبديل مثل ما فعله شارل الخامس الذي هدم مجموعة المباني الجنوبية بحوش الريحان في القرن 16م، لكي يقيم قصره الدائري الكبير، وما أنزله به زلزال سنة 1522م ثم هجرها إلى أن احتلها جنود نابليون، قبل أن تلم به الترميمات الحديثة التي يصفها جورج مارسيه بأنها غير موفقة. (1) «ولكن الحمراء مازالت بالرغم من كل ما أصابها من ضروب التشويه والإهمال، تعتبر أعظم الآثار الأندلسية الباقية، وهي اليوم علم على غرناطة، تشتهر بها عاصمة الأندلس القديمة في سائر الآفاق، ويهرع إليها الرواد من كل صوب، ليصعدوا إلى هضبة الحمراء وليقضوا لحظات في تأمل صرحها الرائع ».(2) طبعا للاستعمار والطبيعة أثر واضح في تغيير الأشياء.

« ولا يستطيع المرء أن يكبح مشاعر الحزن العميقة التي تجتاح داخله، وهو يطل قبل أن يغادر هضبة الحمراء على سهل غرناطة، ويتخيل موقف السلطان الأخير (أبي عبد الله) في مكان ما من هذا السهل، وهو يسلم مفتاح المدينة للملكين الكاثوليكيين، وقد ترك وراءه قصر الحمراء إلى الأبد. ومن الذي أمع عائشة الحرة على توبيخه لمساهمته في إضاعة هذا الفردوس، بل إن أحد ملوك الإسبان شارلكان أو شارل الخامس ضم صوته لصوت هذه الأميرة حينما نقل إليه احتقارها لتخاذل ابنها أبي عبد الله فقال: " لو كنت مكانه لفضلت أن أجعل من قصر الحمراء قبرا لي على أن أغادره وأعيش بدون مملكة في جبال البشرات". وجبال البشرات هذه هي التي نفي إليها هذا الملك، ولكنه لم يستطع البقاء فيها وغادرها إلى شمال إفريقيا حيث قضى بقية عمره لقد كانت الحمراء معقل مملكة إسلامية عظيمة، استمر تاريخها يدوي في الآفاق زهاء مائتي عام وعنوان مدينة إسلامية زاهرة، تركت آثارها الخالدة في الربوع التي تألقت فيها. ثم كانت الحمراء بعد ذلك قبرا لهذه المملكة وهذه المدينة، وفي جدران الحمراء الصامتة التي يكاد الأسى أن يرسم على زخارفها العربية ونقوشها الإسلامية، بل يكاد الدمع يغالبك وأنت تجوس خلال هذه الأبهاء الملوكية الفخمة، وتقرأ في كل ركن منها تلك العبارة المؤسية التي لبثت شعار بني نصر ملوك غرناطة حتى انتهاء دولتهم: "ولا غالب إلا الله"».(3)

---

(1): ينظر: العمارة والفنون في دولة الإسلام، سعد زغلول عبد الحميد، منشأة المعرف (الإسكندري)، دط، 2004م، ص: 520.

(2): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 210.

(3): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 258-259.

« فالعربي المسلم قد يحزن فعلا على ضياع هذا الفردوس، ولكن الشعور الحقيقي بالأسى الذي لا يمكن وصفه بالكلمات يتمالك الإنسان حينما يفكر بالمصير الذي انتهى إليه الشعب المسلم الذي عمر هذه الأرض وتوجها بهذه الروائع: أين هو ذلك الشعب؟ وكيف تم محوه محوا تاما من الوجود؟ على الرغم من أنه كان لثمانية قرون كاملة أمة متميزة عن سائر الأمم.

لقد تعرض الأندلسيون للاضطهاد ومحاولات القهر والإكراه لطمس معالم عروبتهم وعقيدتهم على مدى مئة وثلاثة وعشرين عاما بعد سقوط غرناطة، ثم انتهى أمرهم بأن أزيحوا عن وطنهم بحرا، وحتى مقابرهم اختفت من الأرض، لا تجد لها أثرا في طول إسبانيا وعرضها، ولكن شاء القدر أن تبقى هذه الآثار الخالدة شاهدة على حضارتهم المزدهرة، وعبقريتهم الفذة وعلى دورهم الرائع في رفع راية العروبة والإسلام فوق ربى شبه الجزيرة الأيبيرية ».(1)

(1): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 259.

3/ منارة لاخيرالد:

أ- نبذة تاريخية عن مدينة اشبيلية: « تعتبر مدينة اشبيلية من أعظم مدن الأندلس حيث قال فيها الشقندي: "من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المباني ونهرها الأعظم الذي يصعد فيه المد اثنين وسبعين ميلا ثم ينحصر". وفيه يقول ابن سفر*:

شقُ النسيمِ عليه جيْب قميصه فانسَاب من شَطيه يَطلبُ تارهُ

فَتضَاحَكَت وُرْقُ الحمَام بدوحِهَا هزءا فضَم مِن الحياء إزارَهُ

وقيل لأحد من رأى مصر والشام: أيهما رأيت أحسن؟ أهذان أم اشبيلية؟ فقال بعد تفضيل اشبيلية: "شرفها غابة بلا أسد ونهرها نيل بلا تمساح".

ويقال: إن الذي بنى اشبيلية اسمه يوليش، وإنه أول من سمي قيصر وأنه لما دخل الأندلس أعجب بساحاتها وطيب أرضها وجبلها المعروف بالشرف فردم على النهر الأعظم مكانا، وأقام فيه المدينة، وأحدق عليها بأسوار من صخر صلد، وبنى في وسط المدينة قصبتين بديعتي الشأن تعرفان بالأخوين، وجعلها أم قواعد الأندلس، واشتق لها اسما من رومية ومن اسمه فسماها رومية يوليش.

وكان الأولون من ملوك الأعاجم يتداولون سكناهم أربعة من بلاد الأندلس، اشبيلية، قرطبة، قرمونة، وطليطلة، ويقسمون أزمانهم على الكينونة بها. وأما شرف اشبيلية فهو شريف البقعة، كريم التربة، دائم الخضرة، فرسخ في فرسخ طولا وعرضا، لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه.واشبيلية لها كور جليلة، ومدن كثيرة وحصون شريفة، وهي من الكور المجندة نزلها جند حمص ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق، وانتهت جباية اشبيلية أيام الحكم بن هشام إلى خمسة ثلاثين ألف دينار ومائة دينار.

وقال بعض من وصف اشبيلية: إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة وعليه جسر مربوط بالسفن، وبها أسواق قائمة، وتجارات رابحة وأهلها ذو أموال عظيمة. »(1)

---

(1): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقري التلمساني، حققه: إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، دط، 1997م، ج1، ص: 157-158.

* ابن سفر أبو عبد الله محمد بن صفر الأديب ويكتب اسمه أيضا بالصاد وهو من ناحية المرية وسكن اشبيلية. (نفح الطيب، للمقري، ج1، ص: 157).

« وإقليم الشرف على تل عال من تراب أحمر مسافة أربعون ميلا في مثلها يمشي بها السائر في ظل الزيتون والتين ولها قرى كثيرة، وكل قرية عامرة بالأسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق.

وقال صاحب مناهج الفكر*،عند ذكر اشبيلية، وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة، ويعينهم على ذلك واديها الفرج وناديها البهج، وهذا الوادي يأتيها من قرطبة ويجوز في كل يوم، ولها جبل الشرف وهو تراب أحمر طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلا، وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلا، يشتمل على مائتين وعشرين قرية، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت. »(1)

« ولقد حظيت لاخيرالدا التي كانت تؤلف الجزء الأعظم من صومعة جامع الموحدين باشبيلية بشهرة عالمية لا تقل عن شهرة برج بيزا في إيطاليا، ونالت خلال القرون الثلاثة الأخيرة المكان الأول بين شقيقتها في المغرب والأندلس، فقد تغنى بها شعراء إسبانيا وأدباؤها، ولا يزال اسمها يتردد حتى يومنا هذا على ألسنة فتيان الأندلس وفتياتها في أغانيهم الشعبية (الفلامنكو)، ومازالت صورتها تزين الكؤوس وقنينات العطور ومنتجات السياحة حتى قد أصبحت تمثل باسمها وصورتها مدينة اشبيلية كما تمثل الأهرام مصر، وتعبر في الوقت ذاته عن تاريخ هذه المدينة الحافل بالأحداث، وتنطق عن عزتها ومجدها».(2)

ولقد قال المؤرخ ابن صاحب الصلاة عن صومعة الجامع التي هي أشهر بناء أثري في هذه المدينة، والتي لا تعادلها صومعة في جميع مساجد الأندلس: "سمو شخص، ورسو أصل، ووثاقة عمل وبنيانا بالآخر، وغرابة صنعة، وبدائع ظاهرة، قد ارتفعت في الجو، وعلت في السماء، تظهر للعين على مرحلة من اشبيلية مع كواكب بجوزاء...".(3)

---

* هناك كتاب باسم مباهج الفكر لمحمد بن عبد الله الأنصاري عاد فذكره حاجي خليفة باسم مناهج الفكر، قال إن الاسم الصحيح بالنون ومؤلفه جمال الدين محمد بن ابراهيم الوطواط ويقول خير الدين الزركلي: إنه في الكيمياء والطبيعة وهو في ست مجلدات. (نفح الطيب للمقري، ج1، ص: 159).

(1): نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 158.

(2): بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 261.

(3): ينظر: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 261.

« وقصة لاخيرالدا تبدأ منذ بنى أبو يعقوب يوسف* جامع اشبيلية الأعظم عام 567هـ(1172م)، وقد كان هذا الخليفة محبا للفنون، مولعا بالعمارة والتشييد وكانت اشبيلية مدينته الأثيرة إلى نفسه وحاضرة دولته في الأندلس-أقرب إلى قلبه من مدينة مراكش عاصمة إمبراطوريته- إذ ولد في قرطبة وقضى في اشبيلية جزءا كبيرا من طفولته، وتأثر برقة الأندلس، وفتن بسحرها وراقت له مظاهر الأبهة والثراء التي كان يستنيم لها الأندلسيون، فتخلى منذ طفولته عن خشونة الموحدين وتقشفهم، وأقبل على الترف وانغمس فيه فشيد القصور والمساجد وحرص على تجميل حاضرة ملكه في الأندلس بكل ما من شأنه التعمير والتمصير. وكان من نتائج ذلك أن انطلقت حركة البناء في تلك المدينة واتسمت الأبنية الجديدة بطابع الأصالة والجمال تجتمع فيها البساطة التي تميزت بها عمائر الموحدين مع التعقيد والغلو في الحشد الزخرفي، وكان أبو يعقوب يوسف قد عهد إلى واليه باشبيلية واسمه أبو داوود يلول بن جلداسن ببناء المسجد الجامع ومنارته —والمنارة يطلق عليها الأندلسيون الصومعة- ولكنه توفي أثناء عودته من غزوته بشنترين بالبرتغال ولحقه أبو داوود بعد ذلك بشهور، وتعطل بموتهما بناء الصومعة، وما كاد الخليفة أبو يوسف يعقوب يظفر بالبيعة، ويتولى مهام الخليفة حتى أمر والي اشبيلية الجديد بالإشراف على إتمام مشروع أبيه وإكمال بناء صومعة تجاوز في ارتفاعها صومعة جامع قرطبة التي كانت تعد وقتئذ أعظم مئذنة في المغرب والأندلس ».(1)

« ولاخيرالد بروعتها وجمالها تبدو لؤلؤة اشبيلية الأثرية، وتقع إلى جوار زاوية الكاتدرائية العظمى الشمالية الغربية في جنوب غربي الصحن. وقد ذكر ابن صاحب الصلاة أنها بنيت بغير أدراج، يصعد إليها في طريق واسعة للدواب والناس، وأنه لما صدر أمر الخليفة ببنائها وبناء ما اختل فيها من الجامع وذلك في سنة 584هـ(1188م)، سرع في بنائها بالآجر الذي يؤخذ من بناء حجر سور ابن عباد ».(2)

---

* أبو يعقوب يوسف: هو السلطان الكبير ابن السلطان عبد المؤمة بن علي صاحب المغرب. قيل بأنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشه وشربه الخمر، فخلع بعد شهر ونصف وبويع أبو يعقوب وكان شابا حلو الكلام فصيحا، حلو المفاكهة عارفا باللغة والأخبار والفقه متفننا شجاعا خلقا بالملك. (ينظر: إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين، علي محمد محمد الصلابي، الدار الإسسلامية(مصر)، ط1، 2002م، ص: 108).

(1): بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 262.

(2): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 51.

« وهي على شكل مربع طول ضلعه نحو 60.13 مترا، وبداخله مربع آخر أصغر منه أبعادا وهو قلب المنارة. ويمتد بين الجدران الخارجية والقلب ممرات منحدرة صاعدة مرصوفة بالآجر، تبلغ أربعة وثلاثين، تغطيها قباب صغيرة مضفرة ذات منابت بارزة، ويشتمل القلب على سبع غرف تعلو الواحدة الأخرى، وتستظل كل منها بقبة، وتزداد الجدران الخارجية والداخلية سمكا، وعرض الممرات ضيقا بازدياد الباء ارتفاعا وداخل الصومعة خال من الزخرفة، أما خارجها فقد زينت واجهاتها بنقوش عربية ومغربية بديعة، وبها في ثلثها الأوسط أربع طبقات من المخادع الجانبية، لها نوافذ ومشرفيات عربية، وتعلو هذه الطبقات الأربع طبقة ذات أروقة ومشرفيات عالية، والظاهر أنها كانت طبقة المؤذنين.

لقد أراد الخليفة يعقوب المنصور أن تكون هذه المنارة وحيدة عصرها في الجمال والزينة، فأمر بعد انتصاره في معركة الأرك سنة 591هـ/1195م على القشتاليين، أن تزود بأربعة تفافيح ذهبية، وقام المعلم أبو الليث الصقلي بصنعها والإشراف على رفعها أعلى المنارة».(1)

« ويصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هذه التفافيح ورفعها إلى أعلى المنارة في حفل كان من شهوده، قال: "هذه التفافيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة الكبيرة الجرم، المذهبة الرسم، الرفيعة الاسم والجسم. فرفعت في منازلها بمحضره وحضر المهندسون في إعلائها، وبلوغ وطره، مركبة في عمود عظيم من الحديد، مرسى أصله في بنيان أعلى، زنة العمود مائة وأربعون ربعا من الحديد، موثق هناك في تلاحك البنيان، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء، يكابد من زعازع الرياح وصدمات الأمطار، ما يطول التعجب منه من مقاومته وثباته. وكان عدد الذهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاثة الكبار والرابعة الصغرى، سبعة آلاف مثقال كبارا يعقوبية عملها الصياغ بين يدي أمير المؤمنين وحضوره. ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار. »(2)

---

(1): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 264.

(2): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 54.

- لقد قام أحمد بن باسة رئيس المهندسين عريف العرفاء ببناء الصومعة، ولكن المنية عاجلته ، فخلفه علي الغامري سنة 1188م. (بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم ، ج2، ص: 262).

« وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة، بالتكبير عليها والتهليل حتى وصلت ورفعت بالمسدسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة، ووضعت في العمود وحصلت فيه وحصنت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه، وبمحضر ابنه وولي عهده أبي عبد الله السعيد الناصر لدين الله، وجميع بنيه، وأشياخ الموحدين، والقاضي وطلبة الحضر وأهل الوجاهة من الناس، وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر، بموافقة التاسع والعشرين من مارس العجمي عام أربعة وتسعين وخمسمائة، ثم كشفت عن أغشيتها فكادت تغشي الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز، وبشعاع رونقها.

ومن الواجب ذكره زيادة على ما تقدم أن منارة جامع اشبيلية كانت قرينة لمنارتين شقيقتين فيما وراء البحر، هما منارة جامع الكتبية بمراكش وهي التي مازالت تزدان بها العاصمة المغربية القديمة حتى اليوم، ومنارة حسان القائمة على مقربة من شاطئ المحيط بمدينة الرباط. وكلتاهما على نفس الطراز والنمط في الداخل والخرج، وقد أمر بإنشاء المنارتين أيضا الخليفة يعقوب المنصور، وقيل في شأن منارة الكتبية إنه بدئ بإنشائها في عهد الخليفة عبد المؤمن، ولكنها لم تكمل إلا في عهد حفيده المنصور. وعلى أي حال فقد تم إنشاء الكتبية في سنة 594هـ، بعد تمام منارة اشبيلية بقليل، وأقيمت منارة حسان في نفس الوقت ولكن بناءها لم يكمل، ووقف دون القمة العليا. »(1)

« استمرت هذه التفافيح الذهبية تزين المنارة لما يزيد عن قرن ونصف من الزمن، ثم سقطت في سنة 756هـ/1355م على إثر زلزال مروع هز أركانها بشدة، وغاصت في الأرض وتلفت قشرتها الذهبية الزاهية، وقد عمل الإسبان على تطوير هذه المنارة لتتلائم مع الكنيسة التي بنيت فوق الجامع فحولوا في سنة 803هـ/1400م قبتها العليا إلى برج متواضع للأجراس وبعد انجاز بناء كاتدرائية اشبيلية العظمى سنة 966هـ/1558م أقر مجمع الأساقفة زيادة ارتفاعها والعمل على تحويل قمتها إلى برج عظيم للأجراس. وأنيط هذا العمل بالمهندس القرطبي إيرنان رويت، الذي أبقى على هيكل المنارة الرئيسي بطبقاته الخمس، وهدم معظم بيت أو طبقة المؤذنين، وأقام مكانه بناء مرتفعا من طابقين على طراز عصر الأحياء. »(2)

---

(1): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 54.

(2): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 265.

« استغرق إنشاؤه نحو ثمانية أعوام، ويشتمل هذا البناء على فجوات للنواقيس تعلوها أخرى أصغر منها، يقوم بأعلاها تمثال من النحاس للإيمان، يمثل العقيدة النصرانية، ارتفاعه نحو خمسة أمتار وله شارة تدور عند هبوب الرياح، أطلق عليها الإسبان اسم لاخيرالدا، ثم لم يلبث الاسم أن أطلق على المنارة كلها منذ ذلك الوقت، فأصبحت تعرف ب(لاخيرالد la giralda) أي الدوارة لأن الفعل يدور بالإسبانية girar. »(1) ويكفي لإظهار روعة هذا الجزء الإسلامي أن يلمس الزائر للخيرالدا بنفسه عمارته الصاعدة في إيقاع، وزخارفه المحفورة في الآجر كالمخرمات والموزعة في تعادل واتزان مع رقة وبساطة تنطقان بهذا التفصيل، وإذ كنا نأسف اليوم لضياع الجزء الأعلى من الصومعة فإننا نحمد الظروف التي أتاحت بقاء الجزء الأدنى منها، ولولا بناء هرنان رويت لطابق النواقيس لكانت قد تهدمت حتى أساسها كما حدث لكثير من الصوامع الإسلامية التي غنمها المسيحيون فأزالوها من الوجود.

لم يطرأ على الخيرالدا بعد اتخاذها هذا الاسم أي تغيير ولكنها أصيبت بأضرار فادحة سببتها الزلازل والصواعق كزلزال عام 1819م، وصاعقة 1884م، مما مست الحاجة منه إلى إصلاحها، وقد تولى ذلك المهندس "أدولفو فرناندو كازانوفا" عام 1887م، وهكذا وصلت إلينا الخيرالدا وقد حفظت لنا ما تخلف من صومعة جامع الموحدين باشبيلية. أما قاعدة اللجيرالدا مربع طوله 13.65 مترا بداخله نواة مربعة الشكل طولها6.25 مترا، يدور حولها طريق منحدر صاعد مؤلف من 35 مقطعا، وهذا الطريق يتسع لشخصين يصعدان معا جنبا لجنب، وتعلوه قبوات متعارضة صغيرة متصلة خمس منها في كل مقطع. وتشغل النواة الداخلية للبرج سبع غرف مربعة الشكل الواحدة فوق الأخرى. الخمس السفلى منها مسقوفة بقبوات نصف كروية، أما القبوتان العلويتان فمتعارضتان، ويتراوح ارتفاع كل غرفة ما بين 6.30 و4.90 من الأمتار. ويبدو أنها كانت تتخذ لحفظ أدوات المسجد من كؤوس وأكواب وأطباق وشمعدانات (أو حسك) كما يسميها المغاربة، وأبسطة وحصر...

ويفصح البناء الداخلي للصومعة عن إحكام لفن البناء، ومعرفة بأصول العمارة، فإن الممر الصاعد ينحدر بميل طفيف لا يرهق المرء عند صعوده إلى أعلى البرج.(2)

---

(1): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 266.

(2): ينظر: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 264 إلى267.

وبقدر الصعود تقل درجة الميل، فبينما يميل المقطع الأول في بداية الطريق المنحدر بزاوية قدرها 15° يميل المقطع الأخير عند اقتراب الطريق من السطح بزاوية تبلغ 8° وهو أمر إن دل على شيء فعلى براعة المهندس وحذقه.

وقد لعبت الصومعة دورا هاما في فنون المغرب والأندلس فمنها ولد ذلك النوع من الزخرفة المحتشدة التي عرفت في قصور الموحدين. كما عرفت فيما بعد في قصور بني نصر بغرناطة، وبني مرين بمراكش، وفي بعض الكنائس التي بناها المسلمون الخاضعون لسلطان إسبانيا المسيحية، ويعرفون بأهل الدجن او المدجنين. وهكذا كانت لاخيرالدا مصدرا خصبا أثر في جميع أنواع العمارة في اشبيلية في العصر الإسلامي والعصر المسيحي على السواء، بحيث يصعب علينا أحيانا التفرقة بين بعض الآثار الإسلامية البحتة وغيرها من آثار المدجنين.

وزخارف لاجيرالد تعبر عن فن يختلف اختلافا بينا عن فنون مراكش المعاصرة له فقد أثرتها عناصر أندلسية توافدت عليها من قرطبة حاضرة الخلافة الأموية وسرقسطة ومالقة والمرية وغيرها من حواضر ملوك الطوائف، فهي تصور الغلو في الزخرفة والإفراط في تغطية مسطحاتها بضروب الصناعات مع المبالغة في الرقة، وفيها نطالع روح الاعتدال والتناسق على غير ما يتصف به الفن المغربي من تقشف وبساطة.(1)

« ولا تزال منارة اشبيلية، بالرغم من تحولها إلى برج الأجراس، تحتفظ بكثير من روعتها الإسلامية القديمة وهي بالغة الارتفاع وقد اشتهرت عصورا بجمال هندستها، وروعة زخارفها التي بقي الكثير منها حتى اليوم. ويقول العلامة الأثري الإسباني كونتريراس: "إن لاخيرالدا تبدو صرحا كاملا من الطراز العربي، وفيها تبدو مظاهر الفن الزخرفي الحقيقي. ومن الأسف أن هذا البرج الجميل قد توج بجسم غريب عنه جدا، لا يسمح لنا أن نتصور وضعها القديم، وتفاحتها الذهبية وألواها الزرقاء الزاهية". وقد كان لطراز لاخيرالدا وجماله وافتنانه أثر واضح في تطور الفن المعماري الكنيسي المتعلق بالأبراج الكنيسية، فنرى في اشبيلية وفي كثير من مدن الأندلس الأخرى كثيرا من الأبراج الكنيسية، قد أقيم على طراز شبيه بطراز لاخيرالدا وزخارفها وتقاسيمها الأندلسية ».(2)

---

(1): ينظر: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 268.

(2): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 54إلى57

« وقد كانت الصومعة تقوم بثلاث وظائف في آن واحد: الأولى للآذان، والثانية لإرشاد الضالين من الرحالة والمسافرين في منطقة الشرق وذلك ببريق تفاحاتها، والثالثة لتتويج الصومعة بتلك التفاحات الذهبية التي تتضاءل في الحجم كلما ارتفعت فتتناسق تماما مع القبيبة، وتفصح عن إيقاع وتناسق تؤكده رشاقة المئذنة وسموقها، ويدعمه اتجاهها التصاعدي الذي يزداد قوة بالتقسيمات الرأسية الثلاثة لزخرفة المعينات وتتألف هذه المعينات من ثلاث شبكات تقوم كل منها على ثلاثة عقود، وليست هذه المعينات في الواقع إلا امتدادا لهذه العقود فتتقاطع فيما بينها لتحدث في تقاطعها هذه الشبكات. ويتفق مظهر البرج الخارجي مع نظامه الداخلي كما لو كان مرآة تعكس صورته ».(1)

« وعند الصعود في برج الأجراس حيث يجد تحت نظره مدينة اشبيلية الرائعة، وهي تبدو مستديرة الشكل، بديعة المناظر أندلسية الدروب والتصميم، معظم منازلها بيضاء اللون على الطراز الأندلسي السائد في غالب مناطق جنوب إسبانيا إنه منظر لا يمكن أن يمحى من الذاكرة ففي هذا الموقف تعود كل ذكريات التاريخ الأندلسي المرتبطة بهذه المدينة الأصلية، ونهر الوادي الكبير الذي يشق المدينة من جانبها الغربي، ويصل بينها وبين المحيط الأطلسي حيث يصعد فيه المد اثنين وسبعين كيلا، فيصبح صالحا للملاحة ووصول السفن من المحيط إلى هذه المدينة ».(2)

« وهكذا ظلت الصومعة بجمالها وسموقها ودقة زخارفها وتناسق بنيانها يثير إعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء، فقد كانت تمثل للمسلمين تفوق دينهم ودوام حكمهم في هذه البلاد حتى زالت دولة الموحدين، وتقلصت دولة الإسلام في الأندلس بتقدم حركة الاسترداد المسيحية، فقد سقطت قرطبة عام 1236م وحوصرت اشبيلية عام 1246م وظلت جيوش قشتالة تحاصرها خلال عام ونصف حتى وهنت مقاومتها، ونفذ زادها، وانقطع عنها كل وارد فاضطر أولو الأمر فيها –وعلى رأسهم القائد شقاف وابن شهيب– إلى المفاوضة مع الأعداء على تسليم مدينتهم ثم طلب منهم أن يترك للمسلمين الحق في هدم مسجدهم الجامع وتقويض مئذنته ».(3)

---

(1): بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 265.

(2): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 267.

(3): بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 262.

« فأجابهما الأمير دون ألفونسو الذي أصبح ملكا فيما بعد ألفونسو العالم بجملته التي أضحت في عداد الأمثال: "سأقطع رقابكم جميعا لو مسستم حجرا واحدا منها". وهكذا أذعن المسلمون لحكمه، وسلموا مدينتهم الحبيبة بمسجدها وصومعتها رمز عزهم وكرامتهم وموضع فخرهم. فقد كانوا تحت رحمة الغازين، وكانت الصومعة بعظم ارتفاعها تشهد بقوتهم وسيطرتهم كما كانت لجند قشتالة ثمرة جهود كبيرة وانتصار صعب المنال دفعوا ثمنه غاليا.

وقبل أن أختم حديثي عن منارة لاخيرالدا، أود الحديث عن المسجد الجامع الذي تقود إليه هذه المنارة وما يؤسفني بالفعل وما يؤسف أي عربي مسلم وهو أن هذا المسجد لم يبق له وجود الآن والسبب في ذلك يعود إلى أن بعد سقوط اشبيلية في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الذي أطلق عليه القديس لهذا السبب، وسرعان ما حول المسجد الجامع إلى كنيسة سانتاماريا، وحول اتجاهه حتى يصلح لأداء شعائر المسيحية، وظل المسجد الأعظم على تلك الحال دون أن تلحق به تغييرات هامة في البناء، ومع ذلك فقد أضيفت إليه عدة أبراشيات أكبرها الأبراشية الملكية، وتلاحقت عليه بعد ذلك أضرار جسيمة على إثر هزات أرضية عنيفة، فاضطر المجلس الكنيسي باشبيلية إلى اتخاذ قرار لهدمه لعدم صلاحيته وبناء كاتدرائية أسلوبها قوطي يتماشى وفقد الأسلوب السائد في ذلك العصر، ووضع حجر الأساس في عام 1402م، وبدأت أعمال البناء من الجانب الغربي. ولم يبق من مسجد الموحدين الأعظم إلا عدة عقود تطل على صحنه من جهة الشمال والشرق ».(1)

« ولقد غدت هذه الكنيسة برقعتها الواسعة وزخارفها البديعة ثاني كنائس العالم من حيث الضخامة والروعة بعد كنيسة القديس بطرس في روما. وقد أبقى الإسبان على صحن المسجد الجامع الذي يقع في شمال الكنيسة، وهو ما يزال يحتفظ بطابعه الأندلسي وشكله وموقعه القديم، وفي وسط نافورة أندلسية وضعت فيها آنية التعميد الحجرية، وقد غرست في هذا الصحن، كما في صحن مسجد قرطبة الجامع أشجار ولهذا يعرف بالإسبانية بفناء البرتقال».(2)

---

(1): بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 263-264.

(2): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 262.

« وقد أمر بإنشاء هذا الجامع الخليفة أبو يعقوب يوسف عبد المؤمن الموحدي في شهر رمضان سنة 567هـ/أيار 1172م. وقد استغرق بناؤه نحو أربع سنوات، وكان يشرف على بناء المسجد العريف أحمد بن باسة والناظر على نفقته أبو داوود بلول بن جلداسن، ومن الحفاظ على البناء من اشبيلية، أبو بكر بن زهر، وأبو بكر الساقي وغيرهما. ويشير المؤرخ ابن صاحب الصلاة إلى عظمة الجامع، وأن سعته كانت تقارب سعة جامع قرطبة، فهو من جوامع الأندلس الكبيرة. وكان الخليفة أبو يعقوب يتفقد بناءه بنفسه في أكثر الأيام، ويحث المشرفين عليه بالجد في إتقانه.ويدل على ضخامة البناء ما بقي من أبواب هذا الجامع التي استخدمت في بناء الكاتدرائية ومازالت باقية إلى اليوم، وهي سبعة أبواب خارجية كلها ملبسة بالنحاس والنقوش العربية والآيات القرآنية. ولحسن الحظ بقي باب الجامع الرئيسي حتى الوقت الحاضر، وهو ما يزال يقع شمالي الصحن الإسلامي القديم، ويمكن قراءة النقوش العربية بوضوح على كل من قبضتيه الضخمتين، وهي كما يأتي: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد". ويبلغ عرض هذا الباب نحو خمسة أمتار وارتفاعه عشرة أمتار. ولكن مع كل هذه النقوش والزخارف البرونزية الإسلامية، والآيات المكتوبة عليه يطلق عليه الإسبان اسم باب الغفران، وذلك بسبب بناء هيكل تحت عقده الداخلي نصب فيه تمثال السيدة العذراء حتى ينحني أمامه الراغبون بالتوبة والغفران.

إن التجول في الصحن والتمعن في بابه الرئيس وتفحص النافورة الإسلامية وحوضها المثمن لا يمكن أن يحول انتباه الزائر عن المنارة أو الصومعة التي تطل على الصحن بشموخ من جهة زاويته الجنوبية الغربية، هذه الصومعة التي أمر الخليفة أبو يعقوب ببنائها سنة 580هـ/1184م، ولكنه توفي في نفس السنة فتوقف العمل فيها حتى سنة 584هـ/1188م، وتم انجازها بعد عشر سنوات أي في سنة 594هـ/1197م ».(1)

(1): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 263.

4/ برج الذهب: أحد أشهر الأبراج في مدينة اشبيلية وهو برج الذهب، وهو برج مثمن يبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر مترا وهو أحد الأبراج المنيعة ليكون مركزا دفاعيا أماميا للمدينة ولباب القصر الأمامي.(1) أسسه الخليفة الموحدي أبو العلاء إدريس بن المنصور (1218-1230م). في عام 618هـ الموافق لسنة 1220م تدعيما لسور اشبيلية، وربط هذا البرج بالستارة الرئيسية المحيطة بالقصر عن طريق قورجة مؤمنا بذلك مدخل دار الصناعة للقطائع القائمة بالقرب من سور القصبة الذي يقع على الوادي بباب القطائع إلى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل، وفي نفس الوقت كان هذا البرج يقطع مرور السفن في الوادي عن طريق مأصر أو سلسلة مشدودة بينه وبين يناء ضخم من الطابية والملاط على الضفة المقابلة للنهر. ويتألف البرج من ثلاثة أجسام الأدنى من 12 ضلعا، يليه جسم ثان يقوم على سطح البرج الأدنى في وسطه وكان قد بدأ في أساسه سداسي الأضلاع ولكنه ما يكاد ينبت على سطح البدن الشفع حتى يتحول إلى 12 ضلعا، وبداخله يدور درج. وتزدان أوجه البرج بعقود صماء نصف دائرية مطولة مع مفصصة أخرى مدببة توأمية وتزدان بنيقات* العقود بمعينات من الخزف المزجج تتناوب فيها أخرى الخضراء مع البيضاء-وعلى باب الجسم الثاني للبرج يوجد مسطح مستطيل الشكل يزدان بشبكة من المعينات تماثل نظائر لها في لاخيرالدا-أما الجسم الثالث فأسطواني الشكل ومصمت أضيف إلى البرج لتدعيم بنيانه وتفادي انهياره. ولقد اعتبر برج الذهب أحد الأبراج البرانية وهو ابتكار موحدي قصد بها تدعيم المنارة أو السور، فالبرج البراني يرتبط بالسور الأصلي عن طريق ستارة ثانوية تسمى قورجة تستهدف غلق الطريق أمام الأعداء في أضعف مناطق السور. وهكذا أقيمت في عصر الموحدين أبراج برانية في بطليوس وطلبيرة وماردة وقلعة جابر واشبيلية، وبعض الأبراج البرانية يتخذ شكلا مربعا أو مثمنا كما هو الحال في أبراج قصبة الموحدين ببطليوس وأسوار مدينة أستجة وقلعة جابر، ولكن البرج المثمن يمتاز على البرج المربع بأنه يفوقه مناعة وحصانة، ومن المعروف أن الموحدين استخدموا البرج المربع والمثمن بدلا من الأبراج المستديرة، رغم فعاليتها.(2)

---

(1): ينظر: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 267.

(2): ينظر: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 100.

* بنيقات: الفراغات مثلثة الشكل محصورة بين دائرة العقد وطر المستطيلة. (قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية(بيروت)، دط، 1971م، ج1، ص: 405).

المبحث الثالث: تأثير العمارة الأندلسية على باقي العمارة في الدول الأخرى:

- حمل العرب مشعل الفكر الإنساني والحضارة الإسلامية طول ستة قرون، كانت أوربا تقع تحت كابوس الجهالة، فطلاب العلم من أبناء أوربا المتطلعين إلى الارتشاف من المعرفة والأخذ بأسباب الحضارة والتي لم تكن دراسة فرنسا أو أكسفورد تقع من أنفسهم موقع الرضى والقبول، كانت تأخذ بلبهم الأخبار المتناقلة عن عجائب العلم والحضارة الإسلامية فكانوا يحجون إلى قرطبة وفاس مركز للإشعاع الفكري الأول على أوربا.

كان تأثير الحضارة الإسلامية على أوربا عظيما ، أقرب مدينة بحضارتها للعرب في الفكر والأدب والفن والعمارة خاصة وإذا رجعنا إلى الوراء وتعمقنا في بطن التاريخ أمكننا معرفة حالة أوربا من خلال القرنين التاسع والعاشر. فهذه مراكز الثقافة في إسبانيا بشهادة المستشرقين مثال زغريد هونكا تشع نورا وحضارة، بينما كانت مراكز ثقافتهم عبارة عن أبراج وقلاع يقطنها نبلاء متوحشون يفخرون بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة. فهذا "ألفريدبيل" الفرنسي يقول: " إن الإسلام هو الذي استطاع بما ارتكز في طبيعته من مقومات إنسانية أن يخلق في إسبانيا حضارة مكتملة العناصر"، وهذا المؤرخ الانجليزي (لين بول) يقول: "إن المدينة العربية بعثت إشعاع إسلاميا، وازدهارا اقتصاديا وإنسانية وبطولة في إسبانيا تحت الحكم الإسلامي، فلما رجعت إلى المسيحية، وحلى عنها العرب انتشرت فيها الفاقة واللصوصية".

فكان للعمارة الإسلامية وفن الزخرفة الإسلامية والتزويق والحفر من آثار بارزة في نهضة أوربا، لذا إذا كانت هناك من أمة تدين لها أوربا بالفضل فهي الأمة الإسلامية. ومن هذا نرى أن القرن الثاني عشر شهد عملية تمثيل كبرى وعملية امتزاج، وتداخل بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، حيث تلاقت الحضارتان. (1)

---

(1): ينظر: معالم الحضارة الإسلامية، عمر الدسوقي، أحمد الخوفي، محمد السرغيني، محمد الصادق عفيف، دار الكتب العربية(لبنان)، ط2، 1969م، ج2، ص: 53-54.

وقد أخذ في الثانية عن الأولى في جميع بلدا أوربا ما جعلها تقف على أرجلها وأن تستعد لتقوم بدورها في بناء النهضة الحديثة. وبذلك أتاحت الحضارة الإسلامية الرقي لشعب فتي كان يهم بالنهوض، هذا الشعب اللاتيني ولقد تم ذلك وبالخصوص في الأندلس.(1)

ولقد أثرت العمارة الإسلامية في العمارة الأسبانية (الأندلسية)، حيث استطاعت أن تفرض نفسها في جميع ميادين الحياة المدنية والعسكرية وحتى العمارة الدينية، فأخذ البيت الأندلسي شكل البيت العربي، وأخذت القلاع والحصون والأسوار الإسبانية صورة مثيلتها في العمارة العسكرية العربية، واقتدت الكنائس في قبتها وأقواسها بالطريقة التي بنيت بها المساجد، وقد درس غومت مورينو على نحو مستفيض كنائس المستعمر بين التي قامت في قشتالة وليون وجليقية خلال عصري الإمارة والخلافة الأمويتين في الأندلس، ووجد أنها تتميز دائما باستخدام العقود التي ترتفع فوق أقواس على شكل حدوة حصان.

وقد كان ملوك الإسبان مغرمين بفن العمارة الإسلامية وبما تحويه من نقوش وزخارف، وفي هذا الإطار أرسل الملك بذرو القاسي ملك قشتالة سفارة إلى ملك غرناطة السلطان محمد الخامس يطلب منه فيها أن يبعث إليه بفنانين مسلمين لإقامة قصره باشبيلية، فأرسل إليه السلطان المذكور طائفة من أشهر البنائين والصناع بغرناطة. وقد عكف إيلي لامبير على دراسة الكيفية التي كانت تزين بها الكنائس وعلاقتها بالعمارة الإسلامية فوجد أن مهندسي البناء والمزخرفين المسيحيين في إسبانيا وفي فرنسا وعلى امتداد عصر الفن الروماني، اقتبسوا على التأكيد عدد وفيرا من خيرة أشكال فن الإسلام الإسباني المغربي.(2)

لقد لعبت إسبانيا دورا مهما في نقل العناصر الفنية الإسلامية إلى أوربا، ففي إسبانيا ازدهرت الفنون الإسلامية ازدهارا كبيرا تحت رعاية مسلمي الأندلس. وكانت الثقافة الأندلسية العربية بمثابة مركز إشعاع حضاري وثقافي وفني في أوربا، وكان العلماء والفنانون يحجون إلى الأندلس ليغترفوا من علومها وفنونها العربية.(3)

---

(1): ينظر: معالم الحضارة الإسلامي، عمر الدسوقي، أحمد الخوفي، ج2، ص: 54.

(2): ينظر: في الحضارة العربية الإسلامية، الربعي بن سلامة، مطبعة جامعة منتوري (قسنطينة)، دط، 2004م، ص: 86-87.

(3): ينظر: أثر الفن الإسلامي على التصوير في عصر النهضة، إيناس حسني، دار الجيل (بيروت)، ط1، 2005م، ص: 184.

لقد أثرت الفنون الإسلامية منذ العصور الوسطى في الفنون الغربية، وانتقلت الأساليب المعمارية والزخرفية ومعظم أساليب الفنون التطبيقية الأخرى إلى بلاد الغرب، وكان ذلك بفضل عدة عوامل هيأت الظروف الملائمة لهذا الانتقال، وكان أول هذه العوامل الحضارة العربية الإسلامية التي قامت في الأندلس لثمانية قرون وكان لإشعاعها الفضل الكبير على أوربا في مختلف المجالات وخاصة الفنية والمعمارية.(1)

1)التأثيرات القرطبية في الفنون المعمارية المسيحية:

- في الكنائس:

«لم يتبق من كنائس المستعمرين في الأندلس أو في المناطق التي ظلت خاضعة لسلطان المسلمين حتى القرن السابع الهجري، إلا آثارا ضئيلة لا تكفي لمعرفة ما كانت عليه الكنائس في العصر الإسلامي. ومن آثار الكنائس المستعربة بقايا كنيسة بيشتر التي أقامها عمر بن حفصون إمام ثوار الأندلس وقدوتهم في عصر الطوائف الأول، في الفترة مابين عامي 285هـ - 305هـ (898-917م) وذلك بعد تنصره ومنها كنيسة سانتاماريا دي ملكي بطليطلة التي أقيمت في أواخر القرن التاسع أو طليعة القرن العشر الميلادي، وتتميز هاتان الكنيستان باستخدام العقد المنفوخ أو المتجاوز الذي يتخذ شكل حدوة الفرس وهو عقد ظهر وساد استخدامه في السجد الجامع بقرطبة، وفي فن العمارة الأموية في الزهراء والزاهرة واشبيلية وطليطلة والمرية.

أما الكنائس المستعربة في الممالك الإسبانية المسيحية فكان عددها أكبر نسبيا وإذا ما وصل إلينا منها يعد قليلا لتعرضها لأعمال التدمير والتخريب التي صحبت حملات المنصور محمد بن أبي عامر وابنه المظفر عبد الملك. ولقد بلغ التأثير القرطبي درجة كبيرة في كنائس أشتورية، وتتمثل هذه التأثيرات في شيوع استخدام العقد المنفوخ المتجاوز لنصف الدائرة، والطرر المربعة التي تحيط به، والنوافذ المزدوجة ذات العقدين التوأمين، إلا أن تأثير الفن الخلافي بلغ ذروته في كنائس جليقية مثل كنيسة سنتياجو دي بنيالبا (بليون) » (2).

---

(1): ينظر: أثر الفن الإسلامي على التصوير في عصر النهضة، إيناس حسني، ص: 121.

(2): قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية(بيروت)، دط، 1972م، ج2، ص: 39.

« حيث نشهد العقد المنفوخ الذي تجاوز نصف الدائرة إلى حد أن استدارته بلغت اتساع ثلثي المحيط، وحيث نرى الطرر المستطيلة تحيط بالعقود، والنوافذ المزدوجة ذات العقود التوأمية » (1). وشهدت العمارة فيضا من الإبداعات التي تتجلى في بازيليكية سان ميجل دي إسكالاد بليون، وهي الكنيسة التي بناها القس ألفونسو مع صحبه الذين قدموا من قرطبة سنة 913م وكنيسة سان ميان دي لاكوجيا سنة 984م، وسان تيريان دي ماثوتي التي بناها القس القرطبي خوان سنة 921م، وكنيسة سان باوديل دي برلانجا في قشتالة وجميع عقود هذه الكنائس متجاورة، ونسبتها في إسكالادا تبلغ ثلاثة أرباع القطر، وفي كنيسة سان سلفادور بلفد ديوس نافذة بها زخرفة هندسية جسية متشابكة تشبه تشابكات إحدى نوافذ جامع قرطبة، ويتجلى في عقد خلافي التخطيط يتعاقب في نسجاته اللونان الأبيض والأحمر، وفي كنيسة ليبنيا التي ترجع إلى القرن العاشر ظلة تقوم على مساند ملفوفة شديدة الزخرفة منحوتة في الحناء مقعرة ومزودة بأشرطة كالمساند الملفوفة في جامع قرطبة.

وفي صدور رواق كنيسة سانتياجو دي بنيالبا حنية على أساس تصميم يتخذ شكل عقد متجاوز لا يفترق في شيء عن عقد محراب جامع قرطبة، أما كنيسة سان ميان دي لاكوجوبا، فيتجلى فيها التأثير الخلافي بقرطبة في المساند الملفوفة المحلاة بالزخارف والعقود المتجاورة، كما ظهر في هذه الكنيسة الأخيرة عنصر هام في عمارة جامع قرطبة هو الضلوع المتقاطعة، ففيها قبوة يتقاطع داخلها أربعة عقود نصف دائرية في وسطها، وفي كنيسة سان باوديل دي برلانجا قبة صغيرة تتألف من أربعة عقود متقاطعة في زوجين فوق عقدين آخرين يتقاطعان في وسطهما بحيث تتألف قبوة شبيهة بقبوات جامع الباب المردوم بطليطلة.

ولقد تأثرت أبراج الكنائس بالمنائر الإسلامية، وبرز التأثير أيضا في داخل هذه الكنائس حيث توجد نقوش وكتابات مثل: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، بجانب النصوص الإنجيلية على أعمال الجص في بعض الكنائس (2).

---

(1): قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية(بيروت)، دط، 1972م، ج2، ص: 40.

(2): ينظر: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 224.

إن جامع قرطبة يضم أقدم أمثلة للقباب ذات الضلوع المتقاطعة، واستطاعت أن تأثر تأثيرا قويا في العمارة المسيحية، ففي جامع الباب المردوم (القرن الحادي عشر) عقود متجاوزة ومفصصة تتعاقب فيها كتل الحجارة وقطع الآجر الأحمر وفقا لما نراه في جامع قرطبة، كما نرى فيها شاهدا آخر يثبت تفوق فن الخلافة، ويتجلى ذلك في نظام التقبيب القائم على تقاطع الضلوع في صور مختلفة، منها ما يمثل شكلا رباعيا منحرفا ذا أقطار، بحيث يتخذ شكل قبوتين من الطراز القوطي الواحدة داخل الأخرى، ومنها ما يبدو على شكل مثمن، ومنها ما يقلد تقطع القبة المخرمة الكبرى بجامع قرطبة، ثم انشر استعمال القباب ذات الضلوع منذ ذلك الحين انتشارا كبيرا، يشهد به ذلك العدد الكبير الذي نراه في كنائس المسيحيين بطليطلة مثل: قبة مصلى بيلين بدير سانتافي، قبة مسجد المسلمين وكانت قبة مصلى الجعفرية بسرقسطة قائمة على الضلوع، وظل استعمال قباب الضلوع حتى ظهرت القباب المقرنصة في عهد المرابطين والموحدين. (1)

« ومن قباب قرطبة وطليطلة انطلقت التأثيرات وتغلغلت في العمارة الرومانية الإسبانية، فطغت على نظام التقبيب المصلب في كنيسة المزان بقشتالة، وفي قبوة مصلى توريس دل ريوببنرة وبرج ديرموساك، ومستشفى سان بليز بفرنسا، أما القبوة التي تسقف الغرفة العليا ببرج ديرموساك فقد أقيمت فيما بين عامي 1115م، 1120م، وتقوم على اثني عشر عقدا بارزا تنبت من اثني عشر عمودا ملتصقة بالجدران وتتقاطع هذه العقود فيما بينها حول فتحة وسطى ».(2) « وأقيم مستشفى سان بليز المعروف باسم الرحمة في منطقة جبال البرانس بممر سومبور الذي في طريق الحج إلى شنت ياقب فيما يغلب على الظن قرب نهاية القرن الثاني عشر أو الثالث عشر. وطابع كنيسة هذا المستشفى يبدو شرقيا لأول وهلة، فإن رواقها الأوسط أكثر ارتفاع عن الرواقين الجانبيين وتعلوه في منتصفه قبة. أما قبة كنيسة سانت كروا تقوم على الضلوع المتقاطعة في مدينة متجاورة هي أولورون ».(3)

---

(1): ينظر: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 224-226.

(2): قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية(بيروت)، دط، 1972م، ج2، ص: 44.

(3): بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 226.

« وتتقاطع الضلوع مؤلفة شكلا نجميا يماثل الشكل النجمي نفسه بقبة سانت بليز، إلا أننا لا نشاهد في هذه المرة فراغا في وسط القبة. ولا يختلف بناء هذه القباب عن قباب قرطبة وطليطلة إلا في أنها بنيت بالحجر بقصد معماري بحت. ومن بين هذه القباب التي ترجع إلى القرنين العاشر والحادي عشر والتي تشبه قباب قرطبة أو طليطلة عدد كبير، تخطيط عقوده أكثر بساطة بحيث يماثل كثيرا التخطيط الذي ترسمته فيما بعد التصليبات القوطية الفرنسية، ونعني بذلك أن بعض هذه القباب التي تندرج في قائمة القباب الأندلسية تتقاطع عقودها أو ضلوعها في وسطها دون أن تترك فراغا مركزيا، مثل ذلك قباب الكريستودي لالوث (جامع الباب المردوم)، وكنيسة سان ميثيان دي لاكوجويا ».(1)

« ولقد كانت القصور الملكية صورة من القصور الأندلسية، مثل قصر اشبيلية الفخم الذي أمر بإنشائه بيدرو الأول القاسي سنة 766هـ/1364م، فقد عمل في بناء هذا القصر عرفاء مسلمون من طليطلة واشبيلية وغرناطة، وإلى جانب قيام هؤلاء ببناء قصر إسلامي أصيل تركوا وراءهم الكتابات العربية المألوفة التي ترجو مباركة الله للورد السلطان الذي هو بيتر أو بيدرو القاسي»(2).

وقد انتشر في فرنسا عنصر هام من عناصر العمارة الخلافية بقرطبة هو العقد ثلاثي الفصوص أكثر من انتشاره في قرطبة نفسها، وكان مركز انتشاره في بلدة بوي وتتجلى هذه الظاهرة في واجهة كاتدرائية نوتردام دي بوي، كما نرى تأثير الفن القرطبي في برج الكاتدرائية الذي يزدان بفتحات عقوده متعددة الفصوص على غرار عقود صومعة جامع قرطبة.

2/ التأثيرات القرطبية في الفنون المعمارية الإسلامية:

أ- **في المغرب الأقصى**: بدأت التأثيرات الأندلسية تتسلل من الأندلس إلى المغرب الأقصى، واشتد تيارها في عصر دولتي المرابطين والموحدين حتى شملت كل بلاد المغرب.(3)

---

(1): بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 227.

(2): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 179.

(3): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 48.

وكان طبيعيا أن تتدفق هذه التأثيرات القرطبية التي يمكن أن نسميها أيضا الخلافة الأندلسية على المغرب الأقصى في العصر الأموي بعد أن سعى خلفاء قرطبة منذ عبد الرحمن الناصر إلى مد نفوذهم السياسي إلى أرض المغرب مستهدفين من وراء ذلك محاربة النفوذ الفاطمي على التراب المغربي نفسه، فعبد الرحمن الناصر هو الذي أمر ببناء صومعة جامع القرويين بفاس، في شهر ربيع الأول سنة **345**هـ من أخماس غنائم الروم وجعل في أعلاها قبة صغيرة وضع في دورانها تفافيح مموهة بالذهب في زج من حديد، على نحو ما فعله مهندسوه في مئذنة جامع قرطبة الجديدة التي أمر الناصر بإنشائها في موضعها الحالي قبل بناء مئذنة القرويين بخمس سنوات، كما أن الناصر هو أيضا الذي أمر بإنشاء صومعة الأندلسيين بفاس في جمادى الأول سنة **345**هـ.

ولكن تأثيرات الفنون القرطبية، التي تطورت في عصر الطوائف إلى ما يعرف بالفنون الأندلسية، بدأت تغد على المغرب منذ أن تأثر المرابطون برقة الحياة الأندلسية، وأخذ أمراء المرابطين منذ أيام يوسف بن تاشفين يستقدمون من الأندلس رجال الفن والبناء ويشركونهم في الأعمال الفنية في المغرب، فقد ذكر الإدريسي أن علي بن يوسف عندما عزم على بناء قنطرة على وادي تنسفيت استقدم من الأندلس الخبراء في بناء القناطر. وتتجلى تأثيرات الفن القرطبي بصورة واضحة في زخارف قبة البارودیین بمدينة مراكش. ويعتبر عصر الموحدين العصر الذي توثقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس إلى حد التزاوج، وفيه انتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب الأقصى وظهرت في الأبنية التي أقامها خلفاء الموحدين هناك مثل: جامع حسان بالرباط وجامع الكتيبة بمراكش وجامع القصبة بالرباط، ويذكر ابن سعيد المغربي "أن حضرة مراكش في بغداد المغرب، وهي أعظم ما في بر العدوة وأكثر مصانعها ومبانيه الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم وذلك مشهور معلوم إلى الآن".

وقد برز من مهندسي الموحدين مهندسان أندلسيان لعبا دورا هاما في تطوير فن البناء المغربي في عصر الموحدين هما: الحاج يعيش المالقي، وأحمد بن باسة. (1)

---

(1): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 49-50.

والحاج يعيش صاحب المقصورة المشهورة الملحقة بجامع مراكش، وهي عمل يتم عن فن أصيل وحيل هندسية وبراعة أعجبت كل من شاهده، فقد كانت المقصورة تدور بمحركات خفية ترفع وتهبط بعد ساعات الصلاة، ولا يرى منها إلا الجزء الأدنى من المحراب، ولا تزال في أرضية الكنيسة بمراكش، في الموضع الذي كان يفصل هذا الجزء عن باقي أجزاء المسجد، آثار قطعتين من الخشب بينهما فراغ كاف عميق يتسع لجدران المقصورة حين تهبط فيه.

ب- في تونس: أما في تونس فقد انتقل إليها كثير من أهل شرق الأندلس وأقاموا في كنف السلطان أبي زكريا يحيى الحفصي (620-647هـ)، ويعبر ابن خلدون عن ذلك أصدق تعبير في قوله: "فأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة، واستحكمت به عوائدها، بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس، وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعا وكرها، وكانت من اتساق النطاق ما علمت، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها، ومعظمها من أهل الأندلس، ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية، فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا معظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها".

وفي موضع آخر يشير إلى تأثر عمران تونس بحضارة الأندلس بسبب أن "أكثر سكانها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد، إلا أن الصبغة إذا استحكمت فقليلا ما تحول إلا بزوال محلها. وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثرا باقيا من ذلك، وإن كانت هذه كلها اليوم (أي في زمن ابن خلدون) خرابا أو في حكم الخراب". ومن مظاهر تأثر الحضارة التونسية بالحضارة الأندلسية عن طريق مهاجري الأندلس، رسوخ التقاليد الأندلسية في القراءات والخط، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "... فغلب الخط الأندلسي على الخط الإفريقي وعفى عليه... وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس، وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس".(1)

---

(1): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 52إلى57.

ج- في الجزائر: تبرز التأثيرات المعمارية الأندلسية على المغرب الأوسط بصفة واضحة في الجامع الكبير بتلمسان، أحد أهم وأعظم مساجد المغرب الأوسط، والذي يشبه إلى حد كبير جامع قرطبة لاسيما في المحراب، الذي يشبه كثيرا محراب جامع قرطبة سواء في الشكل والقوس وحتى في النقوش التي تعلو القوس وحتى الكتابات والزخارف الموجودة بجامع تلمسان هي شبيهة بتلك الموجودة بجامع قرطبة، وحتى الزيادات التي كانت تضاف إلى المسجد الكبير بتلمسان مشابهة لمسجد قرطبة.(1) فاللوحتان الرخاميتان اللتان تكسوان إزار واجهة المحراب بقرطبة قلدتا تقليدا واضحا بالنسبة لمحراب جامع تلمسان، هذا بالإضافة إلى البائكة الزخرفية من العقود ثلاثية الفصوص التي تعلو عقد محراب جامع قرطبة في نفس الموضع من واجهة محراب جامع تلمسان، ولا يقف تأثير قرطبة في جامع تلمسان إلى هذا الحد فسقف المسجد خشبي مسطح يعلوه سطح منشوري الشكل أو مسنم على النحو المتبع في جامع قرطبة، والبلاطة تزيد في الاتساع عن البلاطات الأخرى، ويقطع سطحها قبتان يعلوهما جوسقان من الخارج، واحدة منهما تقع على الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى، أي في نفس الموضع تقريبا الذي تقوم عليه القبة المخرمة الكبرى المسماة بقبة فيلافيشيوسا بجامع قرطبة.(2)

«كما يظهر التأثير الأندلسي واضحا في جامع سيدي أبي مدين والذي تشبه زخارفه الهندسية التي تكسو جدرانه زخارف قصر الحمراء بغرناطة، ويعد مسجد أبي الحسن الذي بناه السلطان أبو سعيد عثمان الأول صورة مماثلة لمسجد قصر الحمراء، كما نجد أيضا شبها بين مئذنة المنصورة ومئذنة جامع اشبيلية ».(3)

---

(1): ينظر: مذكرة مقدمو لنيل شهادة الماجيستار: العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، 633هـ-962هـ، 1235-1554م للطالب عبد القادر حسون، جامعة أبو بكر بلقايد(تلمسان)، 2007م، ص: 127.

(2): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 59-60.

(3): مذكرة مقدمو لنيل شهادة الماجيستار: العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، 633هـ-962هـ، 1235-1554م للطالب عبد القادر حسون، جامعة أبو بكر بلقايد(تلمسان)، 2007م، ص: 128.

د- في مصر: ومن مظاهر التأثيرات الأندلسية في العمارة وفنون الزخرفة المصرية منذ العصر الفاطمي وحتى نهاية عصر دولة المماليك يتمثل في نظام المآذن ذات القاعدة المربعة، وفي القبوات التي تختلط فيها المقرنصات بالضلوع البارزة المصلبة، وفي الأشكال المتعددة للعقود الأندلسية التي انتشرت في المنشآت المصرية وعمرت واجهات المساجد والمدارس والأضرحة والمآذن: كالعقود المتجاوزة لنصف الدائرة والعقود المفصصة والعقود متعددة الفصوص والعقود التي تتداخل فيها الخطوط بالمنحنيات والعقود المتشابكة والمتقاطعة وتتمثل معظم هذه التأثيرات الأندلسية بحق في ضريح السيدة رقية الذي يعرف أيضا بمسجد الأندلس لكثرة ما يزدان به من الزخارف والتنميقات أندلسية الطابع. ومن مظاهر هذا التأثير الجامع الشرقي المعروف بجامع العطارين أو جامع الجيوشي الذي جدده أمير الجيوش بدر الجمالي المستنصري بالبناء في سنة 477هـ، واتخذ في صحنه روضة على غرار مساجد الأندلس.

ويعتبر جامع العطارين ذلك الجامع الوحيد في الديار المصرية الذي اتخذت بصحنه روضة، ومن المعروف أن أول من أدخل الرياض في صحون المساجد هو الأمير عبد الرحمن الداخل.

ومن المعروف أن التقاليد الأندلسية تفشت في فنون البناء والزخرفة وانتشرت انتشارا واسعا في الزخارف الجصية والحجرية التي تكسو بنيقات التربيعات المحيطة بعقود المحاريب في أضرحة ومشاهد السيدة عاتكة والجعفري والحصواني وأخوة يوسف والسيدة رقية، وفي التوريقات والتوشيحات التي تزدان بها بعض نوافذ الجامع الحاكمي، وواجهات المئذنتين وتشبه نظائرها في الكسوات الحائطية بقصور الزهراء، وتظهر هذه التوريقات كذلك في حدائر العقود بمسجد الصالح طلائع بن رزيك، وفي عقود واجهة المسجد الأقمر.

ويظهر التأثير أيضا في السور الذي أنشئ على يد صلاح الدين مزودا بأسوار أمامية على النحو المعروف في أسوار اشبيلية وبطليوس زمن الموحدين فكان السور السكندري مزدوجا، ينفتح في السور الأمامي باب واحد، بينما ينفتح في الستارة الرئيسية بابان.(1)

---

(1): بنظر: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 628إلى631.

الفصل الثاني

1. نبذة تاريخية عن الدولة الأموية في الأندلس:

1) دولة عبد الرحمن بن معاوية:

لما أتيح للعباسيين الظفر بمروان بن محمد الجعدي بأحواز مصر، وانقرضت دولة بني أمية وصاحت بهم الأيام ووقع الطلب عمن أفلت منهم، كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك هذا ممن شرده الخوف واستثار به الجلاء والاختفاء إلى المغرب.(1) ومضى إلى إفريقية وقد توافى بها جماعة من أهل بيته، وكان عند عاملها ابن حبيب يهودي فكان يقول يغلب على الأندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن له ظفيرتان، فعندما جاء عبد الرحمن إليه وله نفس الأوصاف التي قالها اليهودي فأراد ابن حبيب قتله حتى لا تتحقق النبوءة،(2) ولقد قاسى هذا الشاب الطريد الشريد مرارة العيش في بلاد المغرب دون كلل، واحتمل الآلام دون ضعف أو استسلام، واستقر به المطاف أخيرا عند أخواله من قبيلة نقرة وكانت الأندلس وقتئذ تموج بالفوضى والاضطراب بسبب الفتن. وهنا لاحت لعبد الرحمن بن معاوية بارقة من الأمل فلابد له وهو سليل حلفاء بني أمية العظام أن يجد لنفسه وسط هذا الصراع مجالا يجدد فيه دولة أجداده، فبدأ من جديد محاولاته التي أخفقت في المغرب.(3) عندما اتصل موالي بني أمية بالعميل بقصد حمله على مساندة عبد الرحمن بن معاوية وتأييده له لم يجدوا منه إلا إعراضا وتهديدا، فانقطع رجاؤهم من المصرية بأسرها وتحولا إلى اليمنية الموتورين وكان هؤلاء يتلهفون للثأر من المصرية وينتظرون فرصة مواتية ينقضون فيها عليهم، فوجد موالي بني أمية منهم ترحيبا بالغا لاستقبال الأمير المغامر ونصرته، وتم الاتفاق بين موالي بني أمية وبين اليمنية على استقدام عبد الرحمن إلى الأندلس.(4)

---

(1): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسل، دار المكشوف، بيروت(لبنان)، ط2، 1956م، ص: 7.

(2): ينظر: تاريخ افتتاح الأندلس، أبو بكر ابن القوطية، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، المؤسسة الونية للكتاب(الجزائر)، دط، 1989م، ص: 125.

(3): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 178.

(4): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج1، ص: 45

وبفضل هذا التحالف تمكن عبد الرحمن بن معاوية من إيقاع الهزيمة بجيش الصميل ويوسف الفهري في 9 من ذي الحجة سنة 138هـ في موقعة جرت بظاهر قرطبة في المصارة، ودخل عبد الرحمن قصر الإمارة ظافرا وأصبح أمير الأندلس بغير منازع. (1)

ومن العجيب أن يلقبه ألد خصومه أبو جعفر المنصور بصقر قريش حيث قال:" صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه فمصر الأمصار، وجند الأجناد ودون الدواوين ونال ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته. إن معاوية نهض بمركب حمله عمر وعثمان عليه، وذللا له صعبه، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها وأمير المؤمنين واجتماع شيعته وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد بأمره، مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين، وأذل الجبابرة الثائرين".

توفي عبد الرحمن بن معاوية يوم الثلاثاء ..... من ربيع الآخر سنة 172هـ، ودفن في القصر من قرطبة، وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وكان عمره يوم دخل الأندلس خمسا وعشرين سنة، وكان قد عقد الخلافة لابنه هشام وسليمان، فاستحقها هشام باستباقه إلى قصر الخلافة قبل أخيه. (2)

وكان لعبد الرحمن الداخل اهتماما كبيرا بالعمران، بدا في اهتمامه بعمارة مسجد قرطبة الجامع وفي تجديده لقصر الإمارة وإنشائه قصره الريفي الذي سماه الرصافة في شمال غربي قرطبة ويعد عبد الرحمن الداخل ويسمى بذلك لأنه أول من دخل من قومه الأمويين إلى الأندلس من أعظم رجال الدولة، وتحوله من شريد إلى مجدد ملك ومؤسس دولة. (3)

---

(1): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج1، ص: 46

(2): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 9 إلى 11.

(3): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 72.

2) دولة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية:

وتولى الملك بعده ابنه هشام بعهد منه إليه، وأفضى إليه الملك وهو بماردة وال عليها، وكان أبوه يوليه في صباه ويرشحه للأمر، وكان الداخل كثيرا ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام، فيذكر له أن هشاما إذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخ وذكرا لأمور الحرب ومواقف الأبطال، وإذا حضر سليمان مجلسا امتلأ سخفا وهذيانا فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يضفر سليمان.(1)

بويع مستهل جمادى الأولى من سنة 172هـ ولما وصل الخبر لأخيه وهو بطليطلة حشد الجنود وقصد قرطبة وبرز إليه هشام، وكان اللقاء بجهة جيان، فانهزم سليمان وعاود الاحتشاد فتكررت الهزيمة، ثم نازعه أخوه عبد الله متخلف أبيه لسبع أشهر من ولايته ولحق بأخيهما سليمان بطليطلة وتحرك هشام إلى منازلتهما،(2) والذي يمكن قوله أنه لم يعكر إمارته القصيرة إلا ثورات أخويه وثورات قام بها بعض اليمنية، ومحاولة قامت بها إمارة أشتوريش المسيحية للامتداد، ولكن قاد هشام استطاعوا إيقاف هذه الحركات بجزم.(3) ومن محاسنه أنه جدد القنطرة التي يضرب لها المثل بقرطبة، فأحكم هشام بناءها إلى الغاية، ومن محاسنه أيضا إكمال بناء الجامع بقرطبة، وكان أبوه شرع فيه ثم توفي سنة ثمانين ومائة، لسبع سنين وتسعة أشهر من إمارته وقيل لثمان. وكان من أهل الخير والصلاح كثير الغزو والجهاد. وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر وولد في شوال سنة 139هـ.(4)

---

(1): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 334.

(2): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 11.

(3): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 73-73.

(4): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 338.

3) دولة الأمير الحكم الربضي: شبه هذا الأمير بالخليفة المنصور العباسي في شدة بأسه وحزمه وقوة عزيمته وحسن تدبيره، وهذه الصفات جميعها مكنة من القضاء على الثورات والفتن التي هددت عرشه. وأول خطر واجه الأمير الحكم كان من قبل أعمامه أمثال سليمان وعبد الله الذين حاولا انتزاع الملك منه فلما علما بموت أخيهما هشام، عبر سليمان إلى الأندلس بجيش من البربر والمرتزقة وحاول أن يشق طريقه إلى العاصمة ولكنه هزم عدة مرات وانتهى الأمر بقتله عند مدينة ماردة سنة 184هـ / 800م، أما عمه الآخر عبد الله، فقد عبر هو الآخر إلى الأندلس واتجه إلى المناطق المعادية للحكم مثل: بلنسية وسرقسطة ولكنه فشل في كلتيهما، واضطر إلى عقد صلح مع ابن أخيه الحكم الذي عفى عنه. ومنذ ذلك الوقت صار عبد الله يلقب بالبلنسي،(1) وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرجض من قرطبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذاته، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة، فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته، وكانوا بالريض الغربي بقرطبة، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم وكانت في أيام الحكم حروب وفتن مع الثوار المخالفين له من أهل طليطلة وغيرهم. (2) توفي الحكم في آخر سنة ست ومائتين (821م) بعد أن وطد ملك بني أمية وقضى على أعدائه، لقد كان الحكم على عكس أبيه رجلا شديد البأس قوي الشكيمة استعمل العنف والشدة في مواجهة خصومه، وكان الحكم يحب بناء المساجد، فهو الذي جعل جاريته يقمن بإنشاء المساجد على نفقاتهن الخاصة مثل مسجد عجب الذي أمرت جاريته عجب بإنشائه.

4) دولة الأمير عبد الرحمن الأوسط:

هو الأمير أبو المطرف عبد الرحمن، الابن الأكبر للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ولد بطليطلة في سقبان سنة 176هـ (792م)، وعهد إليه بولاية العهد باعتباره أكبر أولاده، ثم لأخيه المغيرة من بعده، فلما توفي الحكم خلفه ابنه الأمير عبد الرحمن وهو في سن الثلاثين، وعرف بعبد الرحمن الأوسط لأنه ثاني ثلاثة سموا بهذا الاسم،(3)

---

(1): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 119.

(2): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 339.

(3): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 226 إلى228.

وفي أيامه انتقض المعاهدة بجزيرة ميورقة، فغزاهم في ثلاثماءة مركب فافتتحها ثانية وغزا بنفسه جليقية، فافتتح حصونها وقتل مقاتلها وسب حريمها وذلك سنة 225هـ.(1) على أن أخطر ما وقع في أيام عبد الرحمن الأوسط هو مهاجمة النورمنديين أو المجوس كما سماهم المسلمون لسواحل الأندلس في سنة 229هـ / 844م، وأسرع عبد الرحمن بإرسال قوات إلى المدينة بقيادة نصر الخصي وعبد الرحمن بن رستم، واستطاع هذان القائدان التصدي بشجاعة للقراصنة النورمنديين وأوقعا بهم هزيمة منكرة في قرية طبلاطة جنوبي اشبيلية، وقد أدت هذه الأحداث إلى أن يوجه عبد الرحمن عنايته إلى إنشاء أسطول قوي يحرس سواحل بلاده. واهتم عبد الرحمن بالعمران والمنشآت فقام بتوسيع المسجد الجامع بقرطبة ورفع سقفه وابتكر مهندسوه في المسجد تلك الأقواس المزدوجة التي تعد من روائع مبتكرات العمارة الأندلسية، كما أنشأ عددا كبيرا من المساجد الفخمة في شتى حواضر الأندلس.(2) وكانت وفاته يو الخميس الثلاث خلون من ربيع الآخر سنة 233هـ وولي بعده ابنه محمد بن عبد الرحمن.

5) دولة محمد بن عبد الرحمن:

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ين معاوية، بويع الأمير محمد بن عبد الرحمن في ربيع الآخر سنة 233هـ(3) فبعث لأول ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب تطيلة، فعاث في نواحي ألبة والقلاع، وفتح بعض حصونها، ورجع وبعث عساكر أخرى إلى نواحي برشلونة وما وراءها، ففتحوا حصونا من برشلونة ورجعوا، و لم استمد أهل طليطلة المخالفون من أها بلاد الأمير محمد عليه بملكي جليقية والسكني لقيهم الأمير محمد على وادي سليطة، وقد أكمن لهم فأوقع بهم، وبلغت عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفا. وفي سنة خمس وأربعين ظهرت مراكب المجوس فانتشروا في الأندلس، فلقيهم الأمير محمد فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين، واستشهد جماعة من المسلمين.(4)

---

(1): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 18.

(2): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 74.

(3): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 20.

(4): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 350-351.

وفي سنة سبع وأربعين، أغزى محمد لإلى نواحي بلبلونة، وصاحبها حينئذ غريسية بن ونقة وكان يظاهر أردون بن أذفنس فدوخها وفتح كثيرا من حصونها، ورجع وأسر فرتون ابن صاحبها فبقي أسيرا بقرطبة عشرين سنة.

ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلالقة، فأذخن وخزب وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابن المنذر إلى دار الحرب فدوخها ورجع. ثم توفي الأمير محمد في شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين لخمس وثلاثين سنة في إمارته، ومولده سنة سبع ومائتين.(1)

6) دولة المنذر بن محمد بن عبد الرحمن:

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، كنيته أبو الحكم، وتقدم بعهد أبيه وكان بعيد الهمة قوي الشكيمة و لم يكن أحد من الخلفاء قبله في شجاعته وصرامته وحزمه وعزمه ولقد بلغ ذلك في سنة ما لم يبلغه غيره في الدهر وبادر لأول أمره لسجن هاشم بن عبد العزيز الوزير، وسبب ذلك أن هاشما كان يحسد لمكانه من الأمير محمد، وكان حساده يسعون به عند المنذر حتى تنافرت النفوس. ثم انصرف إلى محاربة عمر ابن حفصون الثائر بمدينة بيشتر ومنازلته، وقد أقسم القسم الغليظ ألا يبرح من حصره حتى يتمكن منه، أو يموت دونه.

فزعموا أن المنذر اعتل لأربعين يوما من منازلته ابن حفصون وللآخر المخنقة، وهب إلى قرطبة في إمارة أخيه عبد الله بن الأمير محمد ليتوب عنه إن اتصل مرضه. فلما وصله مات المنذر وتفرق العسكر وظهر ابن حفصون، وبرز إلى منازعة عبد الله ومن ثبت معه. وعظم أمر ابن حفصون فاستولى على معظم البلاد و لم يبق بينه وبين الملك إلا مقدار مرحلة قصيرة. وكانت وفاة المنذر يوم السبت منتصف شهر صفر سنة 275.

7) دولة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن:

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، كنيته أبو محمد كان-رحمه الله- مقتصدا في أموره من مطعم وملبس شديد التواضع متظاهرا بالبر والخشوع(2)

---

(1): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 351-352.

(2): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 23إلى26.

وتصيرت إليه الخلافة وقد تحيف النكت أطرافها واقتسمها الثوار وكلب عليها الأشرار، ولم يبق منها إلا الاسم فوق ظهر منبر قرطبة، وساءت الظنون ولم يدر عبد الله إلى أين يصرف وجهه، إلى ابن حفصون كبير الثوار المجاور لقرطبة وقد استولى على أعظم البلاد مثل: ألبيرة ورية وما إلى ذلك، أم لابن حجاج وقد استقل باشبيلية وقرمونة، أم لعبد الرحمن بن مروان الجليقي ببطليوس وغيرهم ممن استقلوا بمدن أخرى.

فخرج وقصد بيشتر وانتسف معايشها وقفل، فعقبه ابن حفصون واستولى على استجة إسطبة وأخرج إليه الجيش وألح عليه حتى اتقاه ابن حفصون بطلب الأمان، ثم ضيق على قرطبة حتى خرج بنفسه إلى حصن بلاي وكان آخذا بمخنقها فدخله وملكه واحتشد ابن حفصون وأقبل في ثلاثين ألفا، فنصره الله وهزمه أقبح هزيمة. وصرف وجهه إلى ابن حجاج باشبيلية فهادنه وعاقده، وتقاضى العمر مع ابن حفصون حربا وسلما ومعاقدة ونكتا إلى أن عاد رونق الخلافة وانقشع كثير من الظلماء. وبغض عبد الله الدهر لما جرى به القدر من قتل ولديه ولا أوحش الله من دنيا تطيب بعد قتل ولد ولو أن صحبتها إلى غير أمد كانت وفاته في مستهل شهر ربيع الأول سنة 300 وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وملك خمسا وعشرين سنة وخمسة عشر يوما.(1)

8) دولة الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله:

تولى الحكم وهو في الثالثة والعشرين من عمره وحكم خمسين سنة فهو من أطول الملوك حكما، ولم يكن هذا الأمير ابنا للأمير عبد الله المتوفي بل كان حفيده، ولكن يقال إن سبب تولية عبد الرحمن هو أن أعمامه آسنوا فيه مواهب ومخايل عظيمة تجعله أليق بالحكم منهم، ولم تمض سنوات قليلة من حكم عبد الرحمن إلا وكانت الأندلس قد عادت إلى سابق وحدتها تحت السيادة الأموية بعد أن بعد أن استبت الأمر لغبد الرحمن في الأندلس، وأقدم على أمر خطير وهو يلقبه بلقب خليفة. وفي يوم 2 ذي الحجة سنة 316هـ أصدر الخليفة الجديد منشورا عاما إلى عماله في الكورو والمدن الأندلسية يقول لهم فيه: "وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا، وردودها علينا كذلك.(2)

(1): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 26-27.

(2): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 167-168.

إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه، وتسم بما لا يستحقه منه".

كذلك أمر الناصر لدين الله بإثبات عبارة "الناصر لدين الله أمير المؤمنين" في أعلامه وطرازه ودنانيره ودراهمه ونفذ الأمر بذلك. وهكذا تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة، واستمر لقب خليفة في ذرية عبد الرحمن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة 422هـ (1031م).(1) كان على عبد الرحمن الناصر بعد أن اتخذ لقب الخلافة أن يوطد مكانته في نظر شعبه بصفته حامي سيادة الإسلام، ولذا فقد استمر في مواجهة المماليك المسيحية في الشمال، وكانت ليون هي أقوى هذه الممالك، ولكن الحظ أسعده بموت ملكه هو الجريء أردون الثاني في سنة 924م. وبالحرب الأهلية التي شبت هناك بين ابنيه ألفونسو الرابع، وأخيه رذمير وانتهت باعتلاء رذمير العرش سنة 932م. ولقد ألحق الناصر به هزائم متوالية كان من أكبرها هزيمته في وقعة وخشمة في سنة 322هـ / 934م.

وشهد عصر الناصر مولد إمارة جديدة بدأت صغيرة ثم أصبح لها بعد ذلك الدور الأكبر في التغلب على المسلمين وهي إمارة قشتالة. بالإضافة إلى الحملات الأخرى مع جيرانه من ملوك أسبانيا المسيحية.

ولقد عاصر عبد الرحمن الناصر توسع الشيعة للعبيديين في شمال إفريقية بعد قيام دولتهم في القيروان منذ سنة 909م، وكان عبيد الله المهدي أول أئمتهم ومن خلفه يطمعون في ملك الأندلس وأدى ذلك إلى وقوع صداع بين الدولتين على أن الناصر كانت له الغلبة في هذا الصراع، فقد بدأ بعد ذلك سياسة تسعى إلى السيطرة على جزء كبير من المغرب مستعينا بعملائه من خصوم الشيعة.

ولقد اهتم الناصر بالعمران ويكفي أن نشير إلى أبنائه عددا من القصور الفخمة في قرطبة بنائه مدينة الزهراء في شمال غربي العصمة وهي التي بقيت أطلالها حتى اليوم شاهدة على رقي الفن المعماري الأندلسي وعلى مدى غنى الخلافة وترفها الفائق بالإضافة إلى زيادته في المسجد الجامع بقرطبة وهي زيادة ضاعفت مساحته،(2)

---

(1): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 168-169.

(2): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 87-88.

وبناء صومعة الجامع وتجديد محرابه الذي يعد حتى اليوم آية من آيات الفن الأندلسي وأما اهتمامه بالثقافة فيبدو في كثرة من شهده عصره من العلماء في كل فروع المعرفة إن عصر عبد الرحمن الناصر يعد أزهر عصور الأندلس في جميع المجالات.(1)

9) دولة المستنصر بالله الحكم:

بويع الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بعد موت أبيه، تجديدا لعهده في شهر رمضان سنة 350 هـ(2). اعتلى العرش وهو كبير السن كان عمره وقتئذ قد جاوز الخامسة والأربعين، وهذا راجع إلى طول عهد أبيه، إلا أن الحكم مع ذلك كان خبيرا بشؤون الحكم فقد أشركه أبوه معه من قبل في تدبير شؤون الدولة، وعهد إليه بالإشراف على بناء مدينة الزهراء، يضاف إلى أن الحكم كان رجلا عالما منصرفا إلى العلم والقراءة وتصيد الكتب النادرة من كل مكان.(3) وفي أيامه سكنت الفتنة لتوطيد أبيه الدولة، واستظفاره على الثوار بحسن السيرة وطول العمر ومساعدة الأيام. وفي أيامه ظهرت المجوس المجلبة على المسلمين بحر الجوف، فتحرك إلى المرية، وقد حاصروا حصن القبطة من حصونها فأوقع بهم وأنشأ الأسطول لغزوهم وفي سنة 352 غزا الروم، ففتح مدنا جليلة. وهو الذي بنى الزيادة بالمسجد الأعظم وزينة الفسيفساء المحتلة من قبل ملك القسطنطينية مع الصناع المحكمين لذلك، وورد عليه إرسال ملوك البلاد، وجبابرة العباد، وألقت الأقطار إليه بالمقاليد ونجعت بالطاعة.

وفي سنة 363 افتتح غالب ملوكه مدينة البصرة من أحواز أصيلا، وقفل إلى الحضرة وهكذا عادت قرطبة لتصبح سيدة الموقف في كل شبه الجزيرة و لم يعد في أرض المسلمين بالأندلس مطلع لطامع.(4)

---

(1): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 88-89.

(2): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 41.

(3): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 210.

(4): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 42

أما الشمال الإفريقي فقد واصل الحكم سياسة أبيه في مواجهة الشيعة الفاطميين، ودارت على أرض المغرب معارك شديدة بين الجانبين، واستطاع الحكم على كل حال فرض سيادته على جزء كبير من هذه البلاد، وإن كان ذلك قد كلفه تضحيات ونفقات باهضة. توفي الحكم ليلة الأحد أربعة من صفر سنة 366 وعمره نحو من ثلاث وستين سنة وسبعة أشهر.(1)

10) دولة الخليفة هشام الثاني المؤيد بالله والدولة العامرية:

لما توفي الحكم المستنصر بالله في صفر سنة 366هـ، بويع ابنه وولى عهده هشام بالخلافة، وتلقب بالمؤيد، وكان هشام صبيا لا يتجاوز عمره عشر سنوات فتمت مبايعته بقرطبة بفضل تدبير وزير أبيه محمد بن أبي عامر والحاجب جعفر ابن عثمان المصحف وغالب مولى الحكم وصاحب مدينة سالم.(2) ولم تجر الأمور على نحو ما قدر الخليفة المستنصر. إذ أنه بعد وفاته وقعت أزمة في أمر من يخلفه، وانقسم الناس إلى أحزاب مختلفة كل حزب له رأيه الخاص الذي يناسبه، فرجال الدولة من وزراء ومن إليهم يرون أن يتولى هذا الصبي هشام بن الحكم لأن لهم مصلحة في ذلك فهم سيكونون حكاما بالفعل، وهذا الشيء يحرصون عليه، فريق أخر وهو فريق الجند ومن إليهم لا يعجبهم أن يكون على رأس الدولة صبي قاصر ضعيف ويفضلون عليه رجلا مكتمل الصفات والرجولة، وفريق ثالث محايد يولى المصلح فقط وفريق رابع سلبي لا يهمه الأمر هذا، إلى جانب عامة الناس وفقرائهم الذين لا يرون إلا من يبدل عسرهم يسرا.

وتمخض الموقف أخيرا بأن أصبح الأمر سباقا بين حزبي العسكريين والوزراء. فالعسكريون من أمراء الصقالبة والحرس الخليفي وهما فائق وجؤذر، قرروا تنحية هشام لصغر سنه وتوليه عمه المغيرة بن عبد الرحيم الناصر، أما حزب الوزراء أمثال الحاجب جعفر ابن عثمان المصحفي ومحمد بن أبي عامر، فقد قرروا المحافظة على وصيته الخليفة المتوفي التي تنص على توليه هشام.(3)

---

(1): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 90-91.

(2): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 323.

(3): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 223-224.

وانتهى السباق بانتصار الحزب الثاني حزب الوزاء الذين دبروا مؤامرة أدت إلى اغتيال المغيرة مرشح الحزب الصقيلي وبذلك خلا الجو لهشام بن الحكم المستنصر. وقد نفذ هذه المهمة لمحمد بن أبي عامر، (1) وقد أصبحت مقاليد السلطة في يدي جعفر المصحفي ورجل ثقته محمد ابن أبي عامر وكان بعض ملوك مملكة ليون قد انتهزوا فرصة موت الحكم، فشنوا غارات على ثغور المسلمين، ولم ينتدب لصد هذه الغارات من رجال المصحفي إلا ابن أبي عامر الذي تطوع بذلك مع أنه لم يتول قيادة الجيوش من قبل فخرج على رأس حملة جهزها بعناية وعبر نهر التاجه وأغار على منطقة شلمنقة وظفر بغنائم كثيرة وعاد إلى قرطبة تسبقه أخبار انتصاره. فزاد ذلك في شعبيته وكان أبي عامر بعيد المطامح عظيم الدهاء فيصبح هو "الحاجب" الحاكم بأمره، ويحجر على الخليفة الصبي هشام المؤيد فلا يدع له إلا مظهرا شكليا للسلطة هو الخطبة وضرب السكة باسمه.(2)

11) دولة المنصور بن أبي عامر:

هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن اليزيد بن عبد الملك المقافري، دخل جده عبد الملك مع طارق بن زياد، ونزل بالجزيرة وخدم الملوك الأمويين.

ونشأ محمد ظاهر النجابة، تتفرس فيه مخايل الرياسة، ثم اتصل بالحكم، وولي له من قضاء وأمانة ونقله من طوريهما إلى طور الخدمة والمباشرة والانتظام في أصحاب السلطان،(3) ومنذ أن تولى مقاليد الحكم في سنة 367هـ/977م رأى أن يعتمد على جيش قوي يدين له بالولاء، فعمل على استجلاب كثير من المرتزقة البربر ولاسيما من صنهاجة الذين كانوا يضمرون الكراهية للبيت الأموي.

قاد المنصور اثنين وخمسين غزوة على دول إسبانيا المسيحية الثلاث: مملكة نيرة وليون وقشتالة ومنها ما كان في الشتاء ومنها ما كان في الصيف،(4)

---

(1): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 224.

(2): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 91-92.

(3): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 59.

(4): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 92

وقد بلغ في هذه الغزوات مالم يبلغه قائد مسلم من قبل، وكان يعود من هذه الحملات كل عام بآلاف كثيرة من الأسرى والسبايا وألحق بهذه الدول المسيحية هزائم كبرى ما لم تشهده في تاريخها أبدا. وقد واصل المنصور سياسة الناصر والمستنصر في شمال إفريقيا، ففي سنة 369هـ/980م هاجم سجلماسة عاصمة دولة بني مدرار في أقصى جنوب المغرب فاستولى عليها بمساعدة حليفه خزرون بن فلفول المغراوي. ولم تشغله الأعمال العسكرية المتواصلة عن الاهتمام بالمنشآت العمرانية وتشجيع الثقافة والأدب فبنى قصره الريفي على مقربة من مدينة الزهراء وسماه العمرية وكذلك زيادته للمسجد الجامع بقرطبة بقدر الثلث من الناحية الشرقية، ولكن البناء كان فقيرا من الناحية الفنية.(1)

وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا، وأشد استيلاء سنة أربع وتسعين وثلاثمائة بمدينة سالم منصرفة من بعض غزواته، ودفن هناك، وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه.(2)

12) دولة الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور:

تحولت الحجابة إلى منصب وراثي بعد أن تلاشت سلطة الخليفة الشرعي على يد المنصور فلم يكد المنصور يرحل عن الدنيا حتى قبض ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر على مقاليد الحكم(3) في 3 رمضان سنة 392هـ. اتبع عبد الملك خطة أبيه في اصطناع البربر من العدوة واستخدامهم في جيشه، فكان أعظم من قدم منهم زاوي بن زيرى بن مناد الصنهاجي ومن صحبه من إخوته. كما واصل عبد الملك سياسة أبيه في الغزو والإغارة على إمارات إسبانيا المسيحية،(4) ويذكر ابن الخطيب أنه غزا سبع غزوات منها إلى برجلونة وبلاد الفرنجة، ومنها إلى بنبلونة ومنها إلى غليسية، ومنها غزوة الخريقة، ومنها غزوة قلونية، وآخرها التي مات قافلا عنها، حيث اعتل في منصرفه من غزوته بالصائفة سنة 398هـ، عن بلاد شانجة ابن غرسية، ووصل الحضرة منتصف المحرم في عقابيل قلته متحدثا بالإنكفاء إلى أرضه،(5)

---

(1): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 94-95.

(2): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 398.

(3): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 96.

(4): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 336.

(5): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 87-89.

فلم يستقر بقرطبة إلا ريثما تراجعت قوته إلى أن صح عزمه على مفاجأة العدو، فخرج من قرطبة للنصف من صفر سنة 399هـ فزاد به مرض الذبحة الصدرية. ووقع العمل على إعادته إلى قصره في العمارية، فكانت وفاته بها في الطريق قبالة دير أرملاط من أحواز قرطبة، يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة 399هـ، وولي الأمر بعده عبد الرحمن بن المنصور.(1)

2. الفتنة البربرية وسقوط الدولة الأموية واضمحلالها:

ولقد أطلق الأندلسيون على الفتنة اسم البربرية بسبب الدور الكبير الحاسم الذي قامت به فيها العناصر البربرية في جيوش الخلافة. وقد بدأت هذه الفتنة أو الحرب الأهلية بعد وفاة عبد الملك المظفر، وولاية أخيه عبد الرحمن الحجابة بعدة شهور ويلقب شنجول، ولقد كان شابا أهوج طائشا إذ كان أول ما قام به هو إرغام الخليفة هشام المؤيد على إصدار مرسوم بتعيينه ولي عهد له، وهو أمر لم يجرؤ عليه أبوه المنصور ولا أخوه المظفر. وأثار هذا القرار ثائرة أهل قرطبة الذين كانوا يكرهون دولة العامريين.(2) وعز على المصريين أن ينتقل العرش إلى اليمنيين. وانتهز الأمويون والمصريون فرصة غياب عبد الرحمن العامري في الشمال وقاموا بحركة قوية، فخلعوا هشاما عن العرش وولوا رجلا من أحفاد الناصر وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه المهدي بالله.(3) وتم بعد ذلك نهب مدينة الزاهرة وتدميرها بأيدي عامة أهل قرطبة من أنصار المهدي، أما عبد الرحمن شنجول فقد تملكه الجزع وتخلى عنه أنصاره وحينما وصل في طريق العودة إلى قرطبة إلى قرية أرملاط فاجأته سرية من الجند كان المهدي قد أرسلها للإمساك به إلا أن الجنود ذبحوه هناك في 3 رجب 399هـ (3آذار-مارس- سنة 1009م). ولهذا تنتهي دولة العمريين. على أن الأمور لم تصف لمحمد المهدي ولاسيما بعد أن أساء لقادة الجيش من البربر الذين كان القرطبيون يكنون لهم أشد الكراهية.(4)

---

(1): ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية، لسان الدين، ابن الخطيب، ص: 89.

(2): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 97.

(3): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 253-254.

(4): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 98.

وكان رد فعل هؤلاء البربر أن أعلنوا الثورة على المهدي وبايعوا بالخلافة أميرا أمويا منافسا له هو ابن عمه سليمان بن الحكم بن عبد الناصر وتلقب هذا بالمستعين. وهكذا بدأت الحرب بين الحزب الأندلسي بزعامة المهدي والحزب البربري الذي التف حول سليمان المستعين، ومع أن القتال انتهى بمصرع المهدي في 08 ذي الحجة 400هـ/ 23 تموز يوليو 1010م فإن الأزمة استمرت مستحكمة بسبب إصرار أهل قرطبة رفض كل صلح مع البربر. أما سليمان فإنه حينما عاد إلى الخلافة قام بإقطاع مناصريه من البربر بعض ولايات الأندلس، فكان من نصيب صنهاجة إقليم إلبيرة (غرناطة)، ومن نصيب قبائل زناتة مناطق أخرى: مغراوة في ضواحي قرطبة الشمالية وجيان لبني برزال وبني يقرن، ثم بني دمار وأرداجة في شذونة وموررون، أما الثغر الأعلى (سرقسطة وأعمالها)، فقد أقر سليمان فيه منذر بن يحيى التحريبي. وكان هذا التوزيع بداية لاستقلال حكام ولايات الخلافة بولايتهم، وبداية عصر الطوائف.

أما مدن الشمال الإفريقي التي كانت لسلطان قرطبة فقد أعلنت استقلالها، وكان علي بن حمود الإدريسي في سبتة فإذا به يطالب بدم هشام المؤيد الذي كان سليمان المستعين أعلن موته وتدور حرب جديدة بين الحمودي والمستعين فينهزم سليمان ويدخل علي بن حمود قرطبة في محرم- صفر 406هـ/ تموز (يوليو) 1016م، فيأمر بقتل سليمان ويعلن نفسه خليفة، وهذه أول مرة يلي فيها الخلافة في حاضرة بني أمية أحد العلويين و لم تطل خلافته(1) إلا من العجيب أن ينتهي أمر ابن حمود على أيدي خدمه، ساءهم استبداده بأهل قرطبة وتعصبه لبني قومه فقتلوه في حمامه في غرة ذي القعدة سنة408هـ،(2) ويحاول المروانيون استرجاع الخلافة فينادون في البشيتة بعبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك خليفة بلقب المرتضى ويقوم بأمره خيران الصقلبي ومنذر بن يحي التجيبي، ويتوجه المرتضى إلى غرناطة لكي يخضع أميرها الصنهاجي زاوي بن زيري، ولكن خيران ومنذر بن يحي يغدران بالمرتضى فينهزم جيشه وينتهي أمره بقتله على أسوار غرناطة.(3)

---

(1): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 98.

(2): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج1، ص: 94

(3): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 99.

أما قرطبة فيلي الخلافة فيها القاسم بن حمود لأخيه علي، ولكن سرعان ما يعلن عليه الثورة ابنا أخيه يحي بن علي صاحب سبتة وإدريس صاحب مالقة، ويتمكن يحيى من دخول قرطبة وإعلان خلافته في ربيع الثاني- جمادى الأول 411هـ/ 1021م، واستمرت الحرب بين القاسم وابن أخيه، ثم كانت محاولات أخرى لإعادة بني مروان للخلافة، منها محاولة عبد الرحمن بن هشام بن عيد الجبار (أخي محمد المهدي) الذي تلقب بالمستظهر وحكم نحو شهر ونصف في 16 رمضان 414هـ / 1023م- 3 ذو القعدة 414هـ / 1024م، وانتهى الأمر بقتله، ثم محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الذي تلقب بالمستكفي، ولكنه اضطر للهرب من قرطبة بعد نحو سنة في 25 ربيع الأول 416هـ/1025م. وأخيرا استدعى القرطبيون أميرا أمويا آخر هو هشام بن محمد بن عبد الملك شقيق المرتضى الذي كان قد قتل في معركة غرناطة وكان لاجئا في قلعة البونت ولقب هذا نفسه بالمعتمد بالله. غير أن مصيره لم يكن خيرا من مصير سابقيه، إذ رأى بقية رجالات قرطبة وعلى رأسهم الوزير أبو الحزم ابن جهور أن إحياء الخلافة تحول إلى حلم مستحيل التحقيق وأن خير وسيلة للتخلص من الفوضى هو إلغاء الخلافة نهائيا في 12 ذي الحجة 422هـ /1031م. وكان هذا تكريسا لتمزق الدولة الأندلسية واستقلال كل حاكم ولاية بولايته. وبهذا بدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف.(1)

---

(1): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 99.

المبحث الثاني: نماذج عن العمارة في العهد الأموي:

قبل أن أتطرق إلى أروع وأعظم آثار الدولة الأموية في الأندلس ألا وهو المسجد الجامع بقرطبة، يفرض علي القيام بتعريف مدينة قرطبة وهي تعد أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة وبها الجامع المشهور، والقنطرة المعروفة بالجسر، وبني على أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الأكبر الذي ما يعرف في الدنيا مثله.

وفيها يقول بعض علماء الأندلس:

بأربع فاقت الأمطار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان اثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء، وهو رابعها

وكانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وإليها كانت الرحلة في الرواية إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ونهرها من أحسن الأنهار، مكتنف بديباج المروج مطرز بالأزهار، تصدح في جنياته الأطيار، وتنعر النواعير ويسبم النوار، وقطرها الزاهدة والزهراء حاضرتا الملك وأفقا النعماء والسراء.(1)

تقع مدينة قرطبة على سفح جبل العروس، من الجبال السوداء، وتحتل سهلا فسيحا يقع بين هذه الجبال والوادي الكبير. وفي هذا الوادي يزرع الزيتون ومختلف أنواع الثمار والأشجار. وتمتد عمارة قرطبة على الضفة اليمنى لهذا الوادي الذي ينحني في مجراه انحناءة طفيفة نحو الغري مؤلفا أهم طريق طبيعي في جنوبي إسبانيا.(2)

وتعد قرطبة قاعدة بلاد الأندلس، ودار الخلافة الإسلامية، وهي مدينة عظيمة، وأهلها أعيان البلاد وسراة الناس، في حسن المآكل والمشارب والملابس والمراكب، وعلو الهمم ولها سادات الفضلاء، وأجلاد الغزاة، وأنجاد الحروب.(3)

---

(1): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 153.

(2): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 292.

(3): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 558.

أ- العمارة الدينية: المسجد الجامع بقرطبة:

استطاعت قرطبة لحسن حظها العظيم، أن تنقذ أثرا من آثار عصرها الذهبي هو أهمها على الإطلاق، ذلك هو جامعها الكبير، الذي ذاع صيته في العصور الوسطى بوصفه واحدا من العجائب في العصر الإسلامي. فقد كان هذا الجامع إلى حد كبير يمثل تاريخ الأندلس وآمالها، ومن أجل ذلك كان من المناسب تماما أن يصبح مفتاح الأثر الرئيس في فن العمارة في غرب العالم الإسلامي.(1) وقال المقري جامع قرطبة ليس في معمور الأرض مثله،(2) ويعد جامع قرطبة من الوجهة الغنية من أروع أمثلة العمارة الإسلامية، ومن الوجهة العلمية أكبر جامعة إسلامية كانت تدرس فيه العلوم الدينية واللغوية ويغد إليها الطلاب المسلمين وغير المسلمين من كافة النواحي والبلدان ويقول عنه الحميري "وبها الجامع المشهور أمره الشائع ذكره من أجل مصانع الدنيا كبر مساحته، وإحكام صنعه، وجمال هيئته، واتقان بنيه".(3) وهو بفضل قيمته الذاتية المسجد الوحيد المؤسس في إسبانيا من وحي الروح المبدعة المتفقة مع الطبيعة والتي يحايكها الإنسان بكفاية تامة فللتاريخ والفن أن سعدا به، إذ لو كان دمر لأحدث فراغا لا سبيل إلى سده فقد احتل بين الآثار الإسبانية المكان السامي.(4)

وبجامع قرطبة في بداية قصة شبيهة بقصة جامع دمشق، من حيث أنه بني في موضع كنيسة آل نصفها إلى المسلمين عند دخولهم قرطبة سنة 93هـ/ 711م وهي كنيسة "سانت سنت". فكأن الجامع قد تأثر من نشأته بالطراز المسيحي ذي الرواق المركزي الكبير، والرواقين الجانبيين الصغيرين نسبيا.(5)

---

(1): ينظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج1، ص: 203.

(2): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 558.

(3): ينظر: معالم الحضارة العربية الإسلامية، إسماعيل سامعي، ص: 341

(4): ينظر: الفن الإسلامي في إسبانيا، مانوال جوميث مورينيو،ترجمة: السيد عبد العزيز سالم، لطفي عبد البديع، راجعه جمال محمد محرز، مؤسسة الشباب الجامعة (الأسكندرية)، دط، دت، ص: 16

(5): العمارة والفنون في دولة الإسلام، سعد زغلول عبد الحميد، ص: 301.

- **المسجد الجامع في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل:**

بعد تقسيم كنيسة سانت بسنت بين المسلمين ونصارى قرطبة، أقاموا في شطرهم مسجدا بسيطا ساذج البناء، حيث أسس حنش الصناعي قبلته بيده، وكان من الطبيعي أن يقنع الفاتحين لهذا المسجد البسيط، إذا كانوا مجرد محاربين وافدين حديثي العهد بالبلاد وليس منهم من كان عارفا بفن البناء وبتكاثر عدد المسلمين الوافدين إلى حاضرة الأندلس بوصول الطلائع العربية المتتابعة ونزول جند الشام في قرطبة، يضيق مسطح بيت الصلاة عن الاتساع لجموعهم الكثيفة، وجعلوا يعلقون فيه سقيفة إثر سقيفة أو ظلة بعد ظلة يستكنون تحتها كلما تزايد عددهم، وقد سبب هذا مضايقات كثيرة للمصلين، حتى كان أغلبهم لا يمكنه النهوض في اعتدال لتقارب السقاف من الأرض، ثارت هذه المشكلة في الوقت الذي دخل فيه الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأندلس. وكان شروع عبد الرحمن الداخل في هدم الكنيسة والمسجد القديم وبناء جامع قرطبة بأسلوبه الجديد عام 169هـ/785م، فتم بناؤه واكتملت أسواره في عام 170هـ/786م،(1) وأنفق عليه ثمانين ألف دينار(2) وفي ذلك يقول الشاعر دحية بن محمد البلوي في قصيدته:

وأنفق في ذا الإله ووجهه ثمانين ألفا من لحين وعسجد

توزعها في مسجد أسيه التقى ومنهجه دين النبي محمد

ترى الذهب النارى فوق سموكه يلوح كبرق العرض المتوقد

وينقسم الجامع الجديد الذي بناه الأمير الداخل-شأنه في ذلك شأن المساجد الجامعة الأولى- إلى قسمين: قسم مسقوف هو بيت الصلاة، وقسم مكشوف هو الفناء أو الصحن، وكان بيت الصلاة في هذا المسجد يشتمل على تسعة بلاطات، تتجه عموديا على جدار القبلة ممتدة على اثني عشر عقدا (قوسا) في كل بلاط، وتقوم هذه العقود على عمد من الرخام اتخذت من الكنائس الخربة، وكان اتساع البلاط الواحد 6.86 مترا، وكان سقف المسجد كله يتألف من لوحات خشبية مسطحة مصفوفة عرضا،(3)

---

(1): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 382.

(2): ينظر: معالم الحضارة العربية الإسلامية، إسماعيل سامعي، ص: 129.

(3): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 383.

ومثبتة في عوارض خشبية طولية وعرضية، وعقدت بين العمد الرخامية على أعلى رؤوسها عقود متجاوزة على شكل حدوة الفرس وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها، كما أقيمت فوقها عقود نصف دائرية تحمل الجدران الذي تتكئ عليه السقف.

ويتكون العمود من رأس رخامي (تاج)، وبدن وقاعدة من الرخام، وجميع أعمدة المسجد الذي أقامه عبد الرحمن الداخل القديمة قوطية أو رومانية. ويتوج الجدران الخارجية للمسجد إفريز من الشرفات المثلثة المسننة وتسند الجدران ركائز قوية وظيفتها إكساب المسجد صفة القلاع إذ أن صفوف العقود ترتكز مباشرة على جدار القبلة.

وكان صحن الجامع مغروسا بالأشجار، فقد عهد عبد الرحمن الداخل إلى عبد الله بن صعصعة بن سلام (ت 192هـ) صاحب الصلاة بالمسجد بأن يغرس صحن المسجد بالأشجار ففعل، واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك. فطبق في بقية مساجد الأندلس.

وتوفي الأمير عبد الرحمن الداخل سنة 173هـ قبل أن يتم بناء مسجده فلم يكن للمسجد مئذنة،(1) فأتم الأمير هشام إكمال بناء مسجد أبوه عبد الرحمن الداخل، فأنشأ مئذنة(2) وارتفاع المئذنة (المنارة) إلى مكان الآذان أربعة وخمسون ذراعا، وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمانية عشر ذراعا،وقد تمكن المهندس الأثري دون فليت هرناندث من كشف أساس هذه المئذنة، فوجد أن قاعدتها كانت مرتعة طول كل جانب منها ستة أمتار وكان يتوسط المئذنة من الداخل نواة مربعة الشكل يدور بينها وبين جدرانها الخارجية درج لولبي على نحو ما نراه في برجي سان خوان وسانتياجو بقرطبة والأمير هشام أيضا هو الذي أكمل سقائف المسجد ، فابتنى في نهاية بيت الصلاة مما يلي الصحن سقائف لصلاة النساء، كما أقام ميضأة في الجانب الشرقي من صحن المسجد. (3)

---

(1): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 384 إلى 386.

(2): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 548.

(3): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج1، ص: 323-324.

- **المسجد الجامع في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط:**

تعتبر زيادة عبد الرحمن الأوسط ذات أهمية عظمى، وإن كانت لا تزيد في روعة المسجد إلا قليلا، وقد تجاوزت جدار المحراب في اتساع يبلغ 26 مترا عمقا. وقد حل محل الجدار القديم سلسلة من الدعائم المطولة دمن أن تلتصق بها أعمدة، تتلوها مجموعات مؤلفة من ثمانية عقود(1). وأضاف بلاطتين جانبيتين في سنة 218 استوسع بهما المسجد، ثم أوصل هذين البلاطين في سقيفتين يحفان بصحن المسجد من الشرق والغرب كل سقيفة منها تقوم على 19 سارية، وفي سنة 234 مد بلاطات المسجد جنوبا في الفضاء الواقع ما بين القبلة القديمة وباب المدينة القبلي، وهي الزيادة المحدودة من عند الأرجل الضخام الماثلة اليوم في وسط أبهاء المسجد إلى المحراب الأقدم الذي اتخذت فيه اليوم القبة الكبرى المخرمة، وقد بلغ طول هذه الزيادة من الجنوب إلى الشمال ما يعادل 23.50 مترا تقريبا، واستخدم فيها ثمانين عمودا، وقد أشرف على تنفيذ هذه الزيادة أكبر فتيانه الخاصة نصر ومسرور. فتح عبد الرحمن الأوسط في زيادته بابان في الجانب الغربي المعروف بباب الوزراء (سان استيان)، وبان سان ميجل أما البابان الشرقيان فقد هدما عند شروع ابن عامر في زيادته.(2)

- **المسجد الجامع في عهد أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الأوسط:**

ثم مات الأمير عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد، وخلفه ابنه محمد فأمر سنة 241هـ/855م بإتقان طرز الجامع وتنسيق نقوشه، ثم أقام سنة 250هـ/364م مقصورة خشبية حول المحراب وجعل لها ثلاثة أبواب فلما كمل ما أمر به دخله وصلى فيه ركعات خشع فيها.

وما زالت تزين عقد باب سان استبان كتابة كوفية تسجل أعمال محمد ابن عبد الرحمن نصها: (بسم الله الرحمن الرحيم، أمر الأمير أكرمه الله محمد ابن عبد الرحمن ببنيان ما حكم به من هذا المسجد وإتقانه رجاء ثواب الله عليه وذخره به فتم ذلك في سنة إحدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه، مسرور ونصر فتياه).(3)

---

(1): ينظر: الفن الإسلامي في إسبانيا، مانوال جوميث مورينيو،ترجمة: السيد عبد العزيز سالم، لطفي عبد البديع، ص: 52

(2): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج1، ص: 324-325.

(3): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 388 .

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال، فأقامه في صحن الجامع على غرار بيوت المال في مساجد عمرو بن العاص بالفسطاط، والجامع الأموي بدمشق، وأمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف.(1)

ثم زاد عبد الله بن محمد (275-300هـ/888-912م) أضاف السابط، وهو القنطرة المعلقة الذي وصل الفصر الأميري بباب المسجد الغربي، فكان يمكن الأمير من الدخول مباشرة إلى المقصورة، عبر الشارع الفاصل بين القصر والجامع، ثم أمر سبارة من آخر هذا الساباط إلى أن أوصلها بالمحراب، وفتح إلى المقصورة بابا كان يخرج منه إلى الصلاة.(2)

- **المسجد الجامع في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر:**

قام عبد الرحمن الناصر ببناء المنارة الجديدة للمسجد التي بدئ في بنائها سنة 951، ثم تدعيم واجهة الصحن الذي أجري سنة 957.

وقد حلت هذه المنارة أو الصومعة محل منارة هشام بن عبد الرحمن فكانت أبعد من هذه شمالا وفي موازاته بحيث أمكن إجراء الزيادة في الصحن من الجنوب إلى الشمال حتى صار كما هو عليه الآن. وقد أبقى الزمن على الجزء الذي يبلغ ارتفاعه نحو 22 مترا من المئذنة وعلى جزء آخر من الجدار الأوسط يزيد بأربعة أمتار ويقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها 4.48م.

وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من أقواس على عمد الرخام، ويتألف كل صف من ثلاثة عقود في الواجهتين الشمالية والجنوبية، أما الوجهتان الأخريان ففي كل صف منها ثلاثة عقود في مستوى واحد، يعلو ذلك إفريز يتألف من عقود صغيرة صماء على عمد صغيرة ثم شرفات مسننة تتوج الجسم الأول.

والجسم الثاني وهو أقل من الأول سعة في قاعدته كان بيتا له أربعة أبواب مغلقة يبيت فيه كل ليلة مؤذنان تعلوه قبة وتتوجه أخرى، وفي أعلى القبة التي على البيت ثلاثة تفاحات اثنتان منهما من الذهب والثالثة من الفضة قد ألصقت في طرف العمود البارز أعلاها وهو من النحاس.(3)

---

(1): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 389 .

(2): العمارة والفنون في دولة الإسلام، سعد زغلول عبد الحميد، ص: 302.

(3): ينظر: الفن الإسلامي في إسبانيا، مانوال جوميث مورينيو،ترجمة: السيد عبد العزيز سالم، لطفي عبد البديع، ص: 89-90.

وكان طول كل جانب من جوانب مئذنة الناصر ثمانية أمتار ونصف متر وجدرانها مبطنة جميعها بنوع من الحجر الجيري يعرف باس الكدان الملكي ومنقوشة من أسفلها إلى أعلاها بنقوش متنوعة وزخارف ملونة، وكانت الأوجه الأربعة للمئذنة تزدان بثلاث فصوص من النوافذ المزدوجة تحيط بها عقود تشبه حذوة الفرس. قائمة على عمد من الرخام، وقد اتخذت مئذنة الناصر نموذجا للمآذن الأندلسية مثل: مئذنة جامع اشبيلية، ولقد أصيبت مئذنة الناصر عام 1589م بأضرار جسيمة إثر زلزال عنيف سبب تصدعا في جزئها المعروف ببيت المؤذن وأوشكت المئذنة على الانهيار فقام المهندس القرطبي هرنان رويث فيما بين عامي 1593-1953م بملأ الفراغ الداخلي للبناء، ثم أحاط الجدران الخارجية للمئذنة بغلاف من الحجارة لتقوى القاعدة على حمل الجسم العلوي الذي توجها به.

و لم تقف أعمال عبد الرحمن الناصر عند هذا الحد، فقد قام بترسيم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن وكانت قد تصدعت بسبب الدفع المستمر للعقود الداخلية ثم أصلح باب سان استبان وأقام عليه ظلة تستند على كوابير.

وقد سجل عبد الرحمن الناصر أعماله هذه عل لوحة بجوار المدخل إلى البلاط الأوسط نقرأ فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاه ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته، الذي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر، وجزيل الذخر، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر، فتم ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة، على يدي مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر، عمل سعيد ابن أيوب).(1)

- **زيادة الخليفة الحكم المستنصر:**

لم يكد الحكم المستنصر يتولى الخلافة سنة 961 هـ على إثر وفاة أبيه حتى قام بالتوسعة الثانية لجامع قرطبة بعد أن ضاق بالمصلين وعهد بذلك إلى فتاه وحاجبه جعفر الصقلي.(2)

---

(1): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 390-391 .

(2): ينظر: الفن الإسلامي في إسبانيا، مانوال جوميث مورينيو،ترجمة: السيد عبد العزيز سالم، لطفي عبد البديع، ص: 107.

فقد عمد إلى إطالة بيت الصلاة حتى كاد يبلغ الرصيف المشرف على الوادي الكبير مع الاحتفاظ بنفس الشعة ونظام البلاطات التي كان يضمها البيت القديم في طول يبلغ 46م،(1) ثم زاد أربعة قباب توزعت على البلاط الأوسط والأسكوب الموازي لجدار القبلة، ونظمت على النحو التالي: قبة على مدخل الزيادة وتعرف بالقبة المخرمة الكبرى، وقبة بأعلى الأسطوان الذي يتقدم المحراب مباشرة وهي القبة المعروفة بقبة المحراب، ثم قبتان تكتنفانها بأعلى الأسطوانين المجاورين شرقا وغربا، وبذلك نجح مهندسو زيادة الحكم في إحداث تأثير جمالي من التناسق والانسجام في بلاط المحراب.(2)

ثم شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد، وكان ملك الروم قد بعث بها إليه مع صانع صناعتها، فأجرى الصانع الفسيفساء على جدار المحراب، وفي باطن القبة الكبرى، وفي أعلى نقش كوفي نقرأ فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، أمر عبد الله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله، بعمل هذه الفسيفساء في البيت المكرم، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلاثمائة).

وفي عام 355هـ أمر الحكم بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب، ونصب في قبلة زيادته مقصورة من الخشب منقوشة الظاهر والباطن، طولها خمسة وسبعون ذراعا، وعرضها اثنتان وعشرون ذراعا،وارتفاعها إلى الشرفات ثماني أذرع. وأحاط بها خمس بلاطات من زيادته، وجعل لها ثلاثة أبواب بديعية الصنعة. وصنع الحكم لزيادته منبرا، ليس على معمور الأرض أتقن منه، ولا مثله في حسن صفته بناه في سبع سنين، وكان يعمل فيه ثمانية صناع، وكان عدد درجاته تسعا وعدد حشواته ستة وثلاثين ألف حشوة. سمرت بمسامير الذهب والفضة، وكان يوضع بعد صلوات الجمع في غرفة تقع خلف المحراب.

وفي عام 356هـ هدم الحكم الميضأة القديمة التي كان قد أسسها هشام بن عبد الرحمن في فناء الجامع، وبنى موضعها أربع ميضآت في كل جانب من جانبي الفناء الشرقي والغربي.(3)

---

(1): ينظر: الفن الإسلامي في إسبانيا، مانوال جوميث مورينيو،ترجمة: السيد عبد العزيز سالم، لطفي عبد البديع، ص: 108.

(2): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج1، ص: 359-360.

(3): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 392-393 .

ولقد فتح الحكم إلى يمين المحراب بابا يؤدي إلى الساباط الجديد الذي يصل بين قصره ومقصورة الجامع، ويتصل هذا الباب بمخزن تحفظ فيه العدد والحسك الخاص بوقيد الشموع في كل ليلة 27 من شهر رمضان، كما كان يحفظ فيه مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان الذي خطه بيده، وفيه نقط من دمه.

واختتم الحكم أعمال البناء ببناء دار للصدقة غربي الجامع لتكون معهدا لتوزيع صدقاته، كما أقام في ساحة مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين.(1)

- **الزيادة في عهد المنصور بن أبي عامر:**

أراد المنصور بن أبي عامر أن يوسع المسجد الجامع من ناحية الشرق بزيادة ثماني بلاطات على طوله كله تمتد 48 مترا في السعة، واستطالت حتى الصحن بنفس الطول القديم، و لم يعد المحراب بذلك في منتصف جدار القبلة، و لم يطل الممر الممتد على جانبيه،(2) فأصبح بيت الصلاة يضم بعد زيادة المنصور 19 بلاطا.

وهكذا تضاعفت مساحته، وأصبح يشغل مسطحا كبيرا يبلغ طوله 180 مترا وعرضه 135 مترا، وبذا تبلغ مساحته 24300 مترا مربعا.(3)

ولقد جعل من نواقيس النصارى التي غنمها في غزوته لشنت باقب عام 387هـ ثريات في زيادة بجامع قرطبة، وكذلك هدم المنصور أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل أن يشرع في زيادته، وفتح في الجدار الشرقي ببيت الصلاة القديم ثغرات واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم، أما الجدار الشرقي الجديد فقد فتح فيه المنصور ثمانية أبواب، فأصبح عدد الأباب إلى بيت الصلاة ستة عشر بابا يضاف إليها خمسة تنفتح على مجنبات الصحن، فيكون مجموع أبواب الجامع بصورته الهائية 21 بابا كانت جميعها ملبسم بالنحاس الأصفر ومخرمة تخريما رائعا.(4)

---

(1): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 393-395 .

(2): ينظر: الفن الإسلامي في إسبانيا، مانوال جوميث مورينيو،ترجمة: السيد عبد العزيز سالم، لطفي عبد البديع، ص: 188.

(3): دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذو النون طه، ص: 240-241.

(4): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 397 .

ولقد أضاف المنصور بن أبي عامر قبة البهو من جهة الصحن، وقبة المئذنة وقبة المدخل الأوسط بالمجنبة الغربية، وتمتد في بيت الصلاة صفوف منتظمة من العقود تحملها أعمدة اتخذت من الكنائس القديمة، ويعلو الجدار الأعلى من كل طابق شرفات من ثلاثة طوابق تعلوها قبة مفصصة في وسطها، ويدور بداخل المئذنة درج ضيق على شكل قبوات أسطوانية وبجدارها فتحات تبدو ضيقة من الخارج وظيفتها إنارة الدرج.

وبالجامع زخارف يغلب عليها طابع البساطة تتجلى في العقود الملساء بجدارها وتيجانها، فالمحراب على سبيل المثال فيه زخارف نباتية مخرمة يتسرب الضوء منها، ويزدان الشريط الأفقي للكتابة الكوفية منقوشة في الرخام تقرأ فيها: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا**﴾.(1)

وهكذا لبث الأمراء والخلفاء عصورا يتعاقبون في توسيع جامع قرطبة، وتجميله حتى غدا برقعته الشاسعة وسواريه الألف وأربعمائة وأبوابه العديدة ومحاربه الضخمة وزخارفه البديعة، من أعظم المساجد الجامعة في العالم الإسلامي إن لم يكن أعظمها جميعا.

وبعد سقوط مدينة قرطبة في أيدي النصارى إلى أوائل القرن السادس عشر، شوه مسجد قرطبة الجامع على نحو مؤلم ودخلها فاتحها سان فرناندو ملك قشتالة، أقيم في المسجد الجامع قداس شكر ثم أنشئ به هيكل مؤقت، واقتصر الملوك الإسبان على إجراء تغييرات جزئية في أوضاع الجامع وإنشاء المصليات والهياكل الصغيرة.

وفي عصر الملك ألفونسو العالم في أواخر القرن الثالث عشر أزيلت المقصورة الخليفية، وأقيم مكانها المصلى الكبير وقد كانت إقامة الهيكل الكبير في وسط الجامع على هذا النحو أثار نقدا شديدا من طرف العلماء الأثريين الغربيين من إسبان وغيرهم، وقد وصفه بعضهم بأنه أشنع عمل همجي ارتكب لتشويه الجامع. وكان ذلك أيام الإمبراطور شارلكان ففي سنة 1521م استأذن أسقف قرطبة دون ألونسو مانريكي الإمبراطور في إقامة هيكل رئيسي، يسبغ على الجامع صفته النصرانية بصورة حاسمة فأذن له وأقيم الهيكل الكبير الذي يتوسط الجامع، واقتضى بناء قبته العالية أن يزال السقف الأندلسي،(2)

---

(1): ينظر: معالم الحضارة العربية الإسلامية، إسماعيل سامعي، ص: **342-343**.

(2): ينظر: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: **21** إلى **25**.

فعندما رأى الإمبراطور ذلك أبدى سخطه وندم لما صرح به حيث قال: "لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر، وقد قضيتم بذلك على ما كان أثرا وحيد في العالم". بالإضافة إلى الزيادات الأخرى من طرف ملوك الأسبان التي في كل مرة تزيد المسجد تشويها أكثر وتفقده أصوله الإسلامية. (1)

(1): ينظر: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله، ، ص: 21 إلى 25.

ب- العمارة المدنية: قصر الرُصَافَةُ:

القصر بناء روماني قديم توارثه الملوك حتى الفتح العربي، ثم اتخذه الولاة مقرا لهم إلى أن قامت الدولة الأموية فوسع فيه أمراء بني أمية وشيدوا فيه قاعات ومجالس تأنقوا في تزيينها حتى بلغت الغاية في الفخامة والعظمة، وساقوا إليها المياه من جبال قرطبة وأجروها في ساحاته في برك وأحواض من الرخام وأطلقوها من تماثيل معدنية تمج المياه من أفواهها.(1)

ويعتبر الأمير عبد الرحمن الداخل بحق أول من نثر بذور الحضارة الإسلامية في الأندلس، فقد عمل منذ قيام دولته في هذه البلاد على تجديد ما زال من حضارة بني أمية في المشرق، وما انقرض من آثارها وطعم عبد الرحمن حضارة الأندلس بالطابع السوري وإليه يرجع الفضل في غرس بذور نهضة علمية زاهرة بقرطبة.(2)

ولقد بنى عبد الرحمن الداخل في شمال غرب قرطبة منية أو قصرا صيفيا على سفح جبل قرطبة سماه قصر الرصافة محاكيا في ذلك قصر جده هشام بن عبد الملك الذي بناه خارج دمشق في بادية الشام سنة 110هـ وسماه بهذا الاسم أيضا والتي كان يحن إليها حنينا متواصلا، إلى حد أنه كان يتردد على وصافة قرطبة كثيرا ويطيل في قصرها مقاما.

ولعل كلمة الرصافة جاءت من الرصف أي ضم الشيء إلى الشيء، كما يفعل في رصف الشوارع والمعنى هنا المدينة الجانبية مثل رصافة بغداد وهي بغداد الشرقية التي بناها الخليفة المنصور العباسي على الضفة الشرقية لنهر دجلة مقابل بغداد الغربية ومثل رصافة دمشق ورصافة قرطبة وهكذا.(3)

ولقد نقل إليها الأمير الداخل غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه إلى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية في المدة القريبة أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل، بأرض الأندلس،(4)

---

(1): بنظر: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 32-33.

(2): ينظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص: 206 إلى209 .

(3): ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 108.

(4): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 467.

فاعترف بفضلها على أنواعها وقيل إن الرمان السفر الذي فاض على الأندلس، وصاروا لا يفضلون عليه سواه أصله من هذه الرصافة، حيث قيل: (إنه الموصوف بالفضيلة المقدمة على أجناس الرومان بعذوبة الطعم، ورقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة.

ولقد عرضه عبد الرحمن الداخل على خواص رجاله مباهيا به، وكان في من حضره منهم: سفر بن عبيد الكلاعي من جند الأردن، فأعطاه من ذلك الرمان جزءا فراقه حسنه فسار به إلى قرية بكورة رية، فعالج عجمه واحتال لغرس غذائه وتنقيله حتى طلع شجر أثمر وأينع(1) وكانت في الأصل الرصافة جنة تعرف باسم رينالش وهو اسم ما يزال يطلق على أبنية تقع على بعد خمس كيلومترات شمال شرقي قرطبة.

ومن بين الأشجار التي كانت ترسلها أم الأصبغ أخت الأمير عبد الرحمن من الشام، واهتم عبد الرحمن بغرسها في منية الرصافة وتذكره برصافة جده بالشام أشجار النخيل.

ويذكر الرازي أن عبد الرحمن عندما نزل أول مرة بمنية الرصافة شاهد نخلة أهاجت أشجانه وتذكر وطنه وقال مرتجلا:

تَبَدَتْ لَنَا وَسَطَ الرُصَافَةِ نَخْلَةٌ ... تَنَاءَت بأَرْضِ الغَرْبِ عَن بَلَدِ النَخْلِ

فَقُلْتُ شَبِيهِي فِي التَغَرُبِ والنَوَى ... وطُولُ الثَنَائِي عَنْ بَنِي وعَن أَهْلِي

وكان الأمير عبد الرحمن الداخل يثر الجلوس في علية بالرصافة ليمتع نظره بمشاهدة الجنان المحيطة بالقصر، وكان لقصر الرصافة سور يحيط به ينفتح فيه أبواب من بينها: باب يعرف باسم باب الجبل وعرف اسم هذا الباب في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط.

وظلت الرصافة من القصور الأثيرة لدى أمراء بني أمية، فكان يترلها الأمير عبد الله ويتناوب الإقامة في منيتي الرصافة والنصر، وفي قصر الرصافة أقام أردون الرابع ملك قشتالة المخلوع، بعد أن وعده الخليفة الحكم المستنصر بنصرته ومساعدته على استرجاع عرشه.

وقد آثر أمراء الأندلس بعد عبد الرحمن الدخل هذه المنية وزادوا في عمارتها، وتنافس الشعراء في وصفها حتى أيام ابن سعيد ، وظلت الرصافة بعد انتشار عقد الخلافة منتدى الأدباء ملتقى الشعراء يتبادلون فيه الأشعار من ذلك قول قاسم بن عبود الرياحي: (2)

---

(1): ينظر: نفح الطيب ، المقري ، ج1، ص: 468.

(2): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج1، ص: 50-51

اسْقِينَهَا إِزَاءَ قَصْرِ الرُصَافَة واعْتَبِرْ فِي مَآلِ الخِلافَة
وانْظُر الأُفُقَ كَيْفَ بَدَلَ أرضًا كَي يُطِيلَ البَيبُ فيه اعْتِرَافَهُ

وأصبحت منية الرصافة بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين مقرا للآباء الفرنسيسكان، وقد تبقى منها اليوم بعض آثار جدران وقاعات وفي جوف هذه الأطلال باب يؤدي إلى طريق في باطن الأرض يقال أنه كان يصل بين قرطبة والرصافة. أن هذا الطريق كان يرتاده الأمير عبد الرحمن متى شاء لنفسه الراحة واللهو بعيدا، عن أنظار رعيته بالحضرة وما زال اسم الرصافة يطلق اليوم على موضع المنية التي أقامها الأمير الداخل، وهناك نخلة هرمة قدم عليها العهد حتى تآكلت أجزاء منها وتداخلت فيها قطع الحجارة، وبقايا أبنية قديمة وتذكر الروايات أسبانيا أنها نخلة عبد الرحمن.(1)

(1): ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج1، ص: 53.

ج- العمارة العسكرية: سور قرطبة:

« فتح المسلمون منذ الفتح بالأسوار الرومانية التي كانت تحيط بمدينة قرطبة، وكانت هذه الأسوار مفتوحة من الجهة الغربية، وكان لابد للسمح بن مالك الخلاني والي الأندلس من قبل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز أن يفكر جديا في ترميم هذا السور، حتى لا تصبح قرطبة-الحاضرة- مدينة مفتوحة للداخلين إليها، ولكن تنفيذ هذه الفكرة لم يكن ليتم دون أن تعترضه يومئذ مشكلة رئيسية كان لزاما عليه حلها وهذه المشكلة هي ترميم قنطرة قرطبة التي تربط المدينة بربضها القبلي الواقع على الضفة اليسرى من الوادي، وكان إصلاحها أمرا حيويا قد يكون أولى بالاهتمام من المشروع الأول، لتيسير الاتصال بين قرطبة ونواحيها القبلية.

وكان كلا المشروعين يتوقف تنفيذه على توفير كميات من صخور البنيان التي يستلزم إحضارها نوعا من الاستقرار السلم أو الحضري، وهو ما لم يكن يعرفه الفاتحون حتى ذلك الحين، إذ انصرفوا إلى تنظيم الفتح، وإلى التطلع نحو مزيد من الجهاد فيما وراء جبال البرتات. وهكذا لم يكن يتوفر لدى السمح تدبير الأحجار اللازمة لمشروعين معا، وأصبح يتعين عليه أن يرمم إما القنطرة من حجر السور أو السور من حجر القنطرة إلى أن يتهيأ له فيما بعد أن يستقطع الأحجار اللازمة لأعمال الترميم، وأشار عليه الخليفة عمر بن عبد العزيز بأن يرمم القنطرة —التي كانت وسيلة حيوية للاتصال بين قرطبة وشقندة- بحجارة السور الغربي المتخرب. فرمم السمح بن مالك الخلاني قنطرة قرطبة، ثم شرع في جبر ما تثلم من السور بالبن — مؤقتا- ولكن هذه البنية الجديدة كانت تبدو ضعيفة بالمقارنة مع الأسوار الرومانية المبنية بالحجر، ولم يلبث القطاع الذي بناه السمح بسور قرطبة أن تهدم من جديد، كما تفتحت المدينة من الجهة الشرقية بع أن امتد العمران إلى هذه الناحية، وكان طبيعيا أن تتهدم الأسوار بسبب التوسع العمراني، ولتسهيل الاتصال بين جانبي قرطبة الشرقي والغربي، أما ما تخلف من أحجار السور المتهدم فقد استخدمها أهل قرطبة في بناء منشآتهم المدنية والدينية، وتحولت مواضع الأسوار المتهدمة إلى شوارع فسيحة ».(1)

---

(1): قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج1، ص: 27-28.

« وظلت مدينة قرطبة مدينة مفتوحة إلى أن نجح الأمير عبد الرحمن الداخل في إحياء دولة بني أمية بالأندلس واضطر –بسبب الفتن والثورات المضطرمة في أنحاء الأندلس- إلى ترميم سور قرطبة على أساس السور الروماني القديم، وسمى ذلك في سنة 52هـ وفي ذلك يقول صاحب كتاب فتح الأندلس: "وفي سنة خمسين ومائة أمر الإمام ابن معاوية ببناء سور قرطبة، فبنى ما كان جبر منه بالبن إذ بنيت القنطرة من صخره، فكمل بناؤه حسب ما أمر به"» (1)

« وكان سور قرطبة على شكل متوازي الأضلاع لا يتجاوز محيطه أربعة كيلومترات وهو ما يتفق وتقدير ابن حوقل الذي يقول: "ودرت بقرطبة في غير يوم في قدر ساعة"» (2)

« أما قطاعه الجنوبي يمتد بحذاء الضفة اليمنى من الوادي الكبير مسافة تبلغ نحو 800 مترا إلى يمين القنطرة ويسارها، وكان قطاعه الغربي يمتد نحو الشمال الغربي مسافة تصل إلى 1200 مترا، ثم ينحرف السور الغربي بعد ذلك باتجاه الشرق، ثم يعود إلى الانثناء نحو الجنوب.

وظل سور قرطبة وأرباضها موضع اهتمام الأمراء والولاة، وفي عصر دولة الموحدين تجدد بناء سور قرطبة استخدم في عمارته الطابية، وهو تراب مختلط بالكلس والنورة وقطع الحجارة، وأقيم أمام السور حزام براني أو ستارة أمامية من النوع الذي نشاهده في سور اشبيلية.

وقد تبقت من سور قرطبة بقية متناثرة لها طابع فن بناء الأسوار في عصر المرابطين والموحدين، منها قطع من السور الروماني القديم يمتد غربي المدينة» (3)

---

(1): قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 28-29.

(2): في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص: 301.

(3): قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ج2، ص: 30-31.

الخاتمة

- لقد برزت العمارة الأندلسية باعتبارها فنا متميزا له طابعه الذي يعر عن خصوصيته، فهو ذلك الفن الذي يبعث في النفس هدوء و سكينة و ترتاح له العين لرأيته، ويأخذ النفس بعيد لتسبح في الأجواء الروحية لارتباطه بالعقيدة الإسلامية السمحة.

- قام كل من القائدين الفذين طارق بن زياد و موسى بن نصير بعدة حملات كانت معظمها موفقة، و تمكنوا من التوغل في معظم أرجاء اسبانيا و فتحوها، وصارت اسبانيا دولة مسلمة و يرجع الفضل الكبير لهم في انتقال الحضارة الإسلامية في الأندلس.

- وبفضل دور الفاتحين العرب أقام المسلمون بالأندلس حضارة لا مثيل لها في العالم استطاعت أن تحقق لنفسها فنا فريدا و متميزا، كما تركت أثرا عديدا مازالت عند يومنا الحالي شواهد حية على صدق تلك الحركة الكبرى في البناء والتشييد و من بين هذه الآن قصر الحمراء.

- وكان للحضارة الأندلسية لاسيما في مجال العمارة تأثيرا كبيرا على نمط العمارة في الدول الأخرى سواء كانت مسيحية أو عربية بالمشرق أو المغرب، اقتبست عنها بعض النماذج وأضافوها في عماراتهم، وهذا مما يدل على عظمة الحضارة الأندلسية، ويجب علينا نحن العرب المسلمين المحافظة على هذا الإرث العظيم الذي تركه أجدادنا و الذي تركه أجدادنا، والذي بقيت المصدر والمرجع الأساسي للمسلمين.

وبقيام الدولة الأموية في لأندلس بدأت مرحلة جديدة استقرت فيها دعائم الإسلام في الأندلس، وذلك بفضل حنكة وخبرت أمرائها وخلفائها الذين غرسوا جذورهم في الأندلس، ورسخوا القواعد الحضارية التي لا زالت شاهدة على عظمة حضارتهم.

- وبفضل الحضارة الأندلسية مازال صيت الحضارة الأموية بارزا شعاعه في الأفق، ويحتل مراتب تأهله لأن يكون له وزن وثقل تاريخي تشهد وتحسب له شعوب الإسلامية وغير الإسلامية ألف حساب بسبب أثاره الباقية إلى يومنا هذا، والتي من الواجب الاهتمام بها، وعدم التخلي عنها لأنها تمثل الأمة بأكملها.

- وأقترح في ختام هذا البحث أن نعطي الأولوية وأهمية كبرى لدراسة الحضارة الأندلسية، وبأن تكون هناك أبحاث ودراسات دقيقة مستقلة بمختلف المواضيع، حتى يرفع الستار عما هو غير جليٌّ لاسيما كل ما يتعلق بتاريخ وحضارة الأندلس مع التأكيد على الأمانة العلمية.

الملاحق

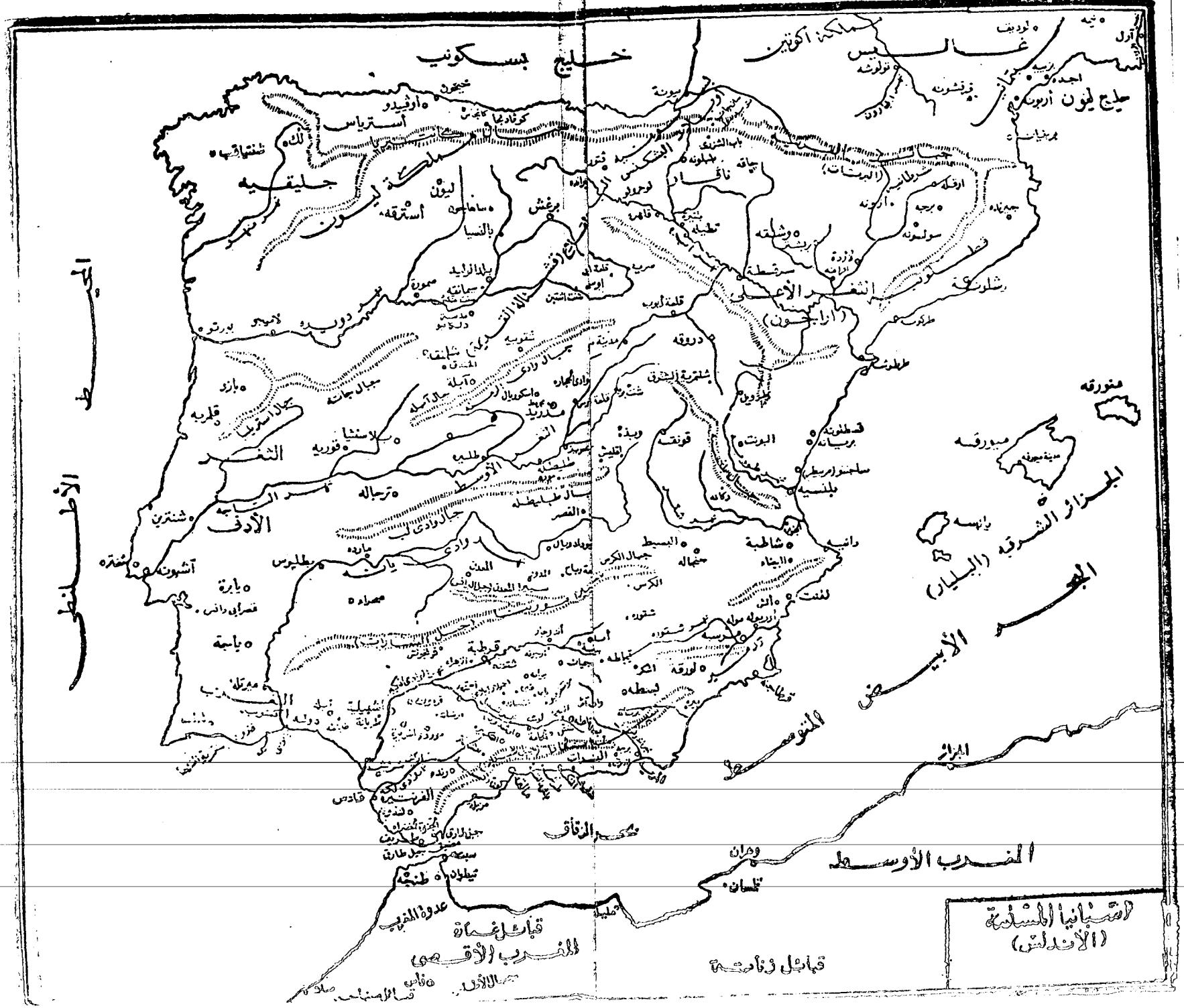
خليج بسكونيه
المملكة الكونتين
غاليس
خليج ليون
جبال البرنيات
(البرنات)
الشعر الأعلى
(ازابجون)
الشعر الأوسط
الشعر الأدف
البحر المتوسط
البحر الأبيض
البحر الأطلنطي
الجزائر الشرقيه (البليار)
منورقه
ميورقه
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
قبائل زناته
عدوة المغرب
اسبانيا المسلمة
(الأندلس)

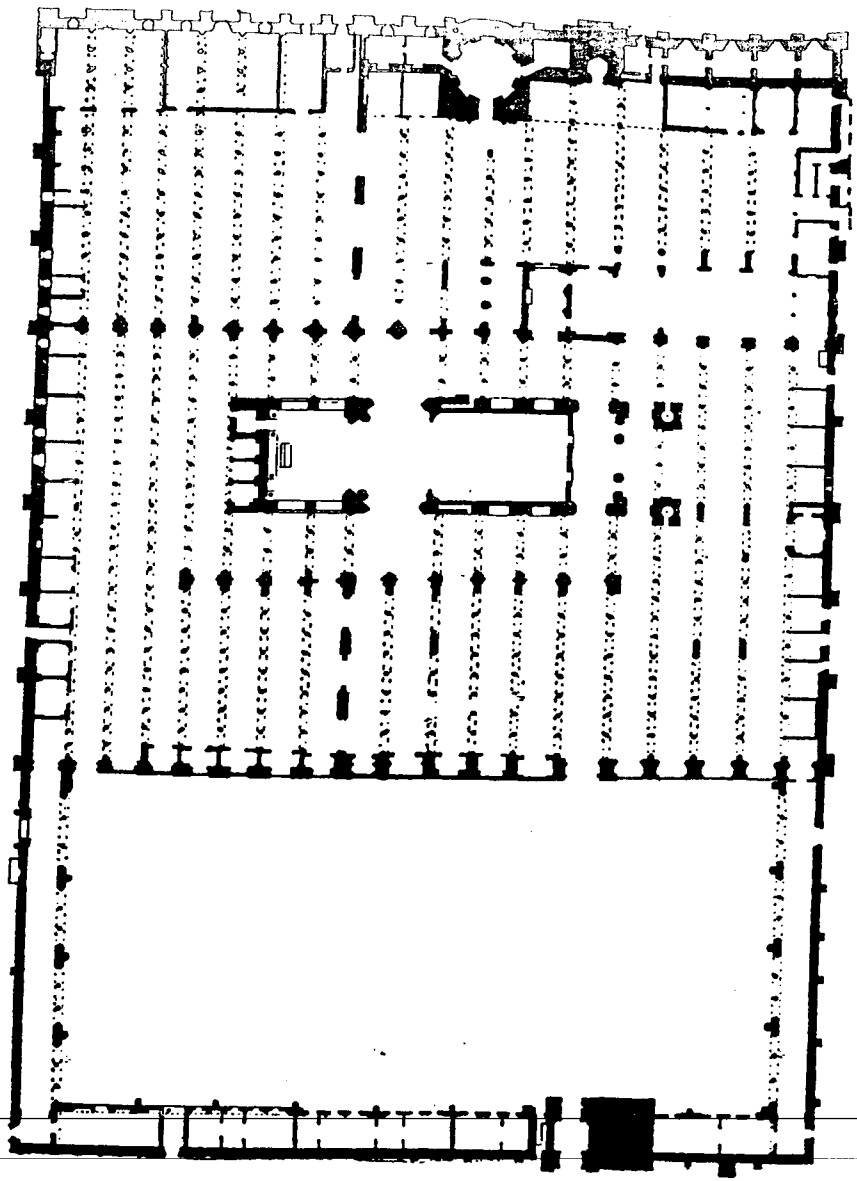

ش ٢٧ ـ الجامع وقد حول كاتدرائية فى القرن التاسع عشر

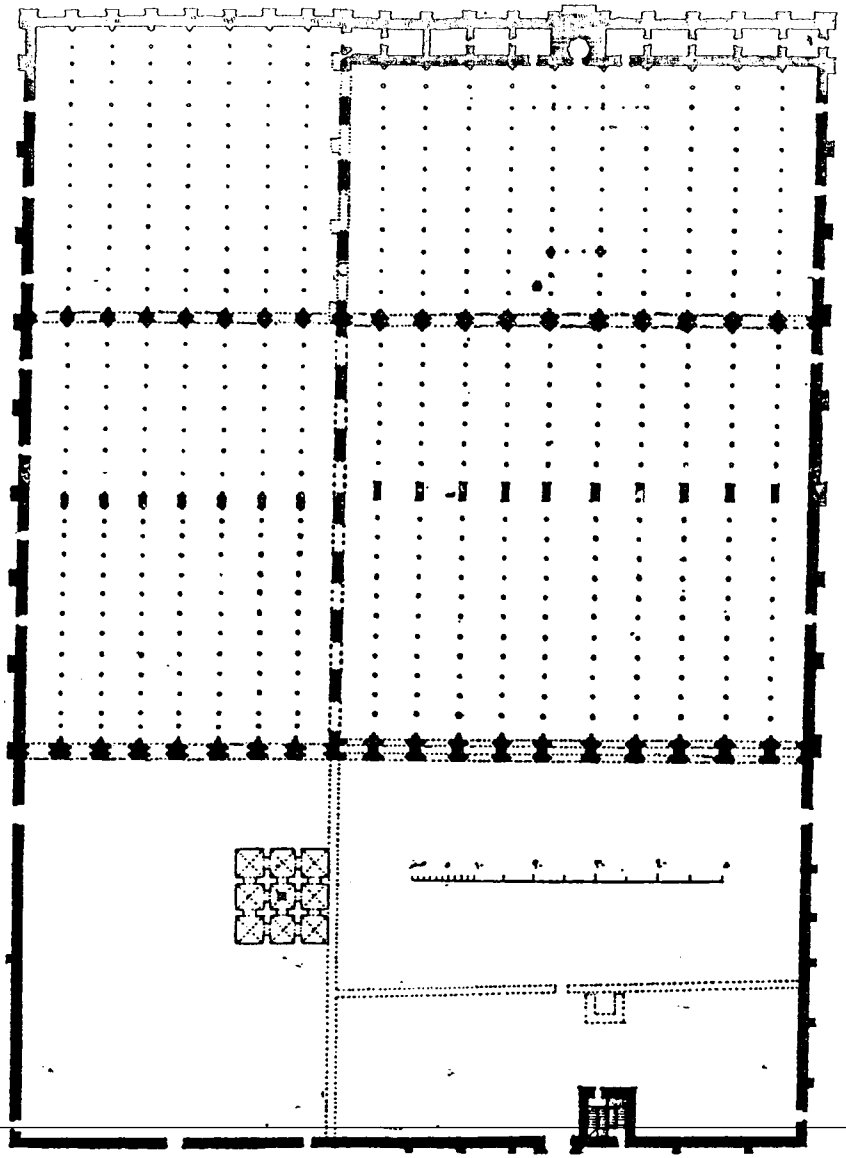

ش ٢٨ ـ جامع قرطبة مع الزيادات التى أدخلت فيه

القبة المقربصة بقاعة بني سراج.

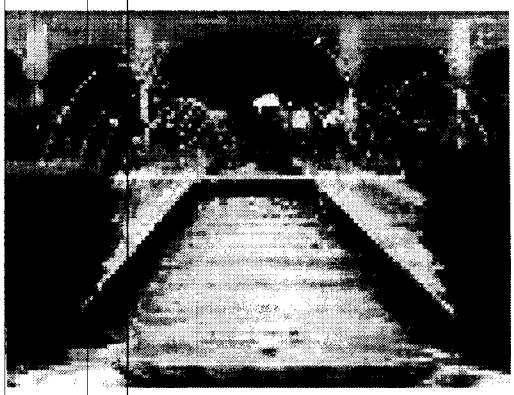

بهو الساقية بقصر جنة العريف.

مئذنة جامع اشبيلية.

منظر عام الجير الدا.

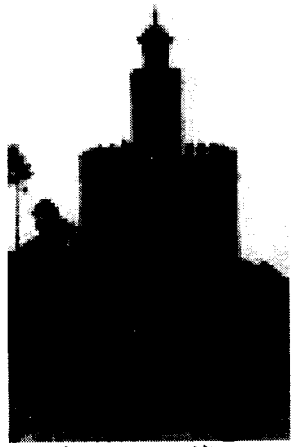

برج الذهب في اشبيليه.

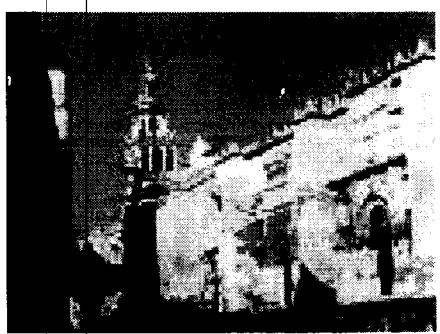

بوابات الجانب الغربي من الجامع قرطبة

بوابة سان استيبان غربي المسجد

الصحن.

بيت الصلاة بجامع قرطبة.

بوابات الجانب الغربي من الجامع قرطبة.

بلاطات بمسجد عبد الرحمان الداخل

مأذنة جامع قرطبة.

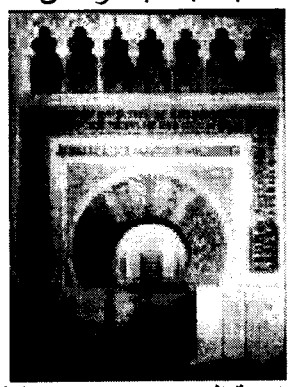

واجهة المحراب بجامع قرطبة

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله عنان، مطبعة المدني(مصر)، ط2، 1997م.

بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، السيد عبد العزيز سالم، دار الغرب الإسلامي، بيروت (لبنان)،ط1، 1992، ج2.

تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1981

تاريخ افتتاح الأندلس، أبو بكر ابن قوطية، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، دط، 1989م.

الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (لبنان)، ط1، 1998 ج 1

الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (لبنان)، ط1، 1998 ج2

مظاهر الحضارة في الأندلس، في عصر بني الأحمر، أحمد محمد الطوخي، تقديم، أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، دط، 1998م

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد ابن المقري التلمساني، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968/1997، ج1.

قرطبة حضارة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت (لبنان)، دط، 1971، ج1

قرطبة حضارة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت (لبنان)، دط، 1972،ج2

دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، عبد الواحد ذنون طه، دار المدار الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط1، 2004م.

الفن الإسلامي في اسبانيا، مانويل جوميث مورينيو، ترجمة: السيد عبد العزيز سالم لطفي عبد البديع، راجعه جمال محمد محرز، مؤسسة الشباب الجامعة (الإسكندرية)، دط، دت،

لسان العرب، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت (لبنان) ، ط1، 1997، ج4

ثانيا: المراجع

- أثر الفن الإسلامي على التصوير في عصر النهضة، إلياس حسيني، دار الجيل (بيروت)، ط1، 2005م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية، محمد عبد القادر خريسيات، مؤسسة الدراسات الجامعية (الأردن)، ط1، 2000م.
- تاريخ المغرب الكبير، (العصر الإسلامي)، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية (بيروت)، دط، 1981م.
- الحضارة الإسلامية، محمد عبد المنعم الجمل، دار المعرفة (الإسكندرية)، دط، 2003م.
- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، دار الفكر العربي، القاهرة، دط 1999م.
- دارسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية، نخبة من الأساتذة، مجلة كلية الأداب، (العمارة)، دار الوفاء الإسكندرية (مصر)، ط1، 2005م، ج1.
- في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العيبادي، دار النهضة العربية بيروت، دط، 1978
- العمارة و الفنون في دولة الإسلام ، سعد زغلول عبد الحميد ، معارف الاسكندرية د ط ، دت
- معالم الحضارة العربية الإسلامية، د. إسماعيل سامعي، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر)، دط، 2007م.
- معالم الحضارة الإسلامية، عمر الدسوقي، أحمد الخوفي، محمد الشرغيني، محمد الصادق عفيفي، دار الكتب العلمية، ط2، 1969م.

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير: للعلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، 633هـ، 962، 1235م، 1554م، للطالب عبد القادر حسون، جامعة أبو بكر بلقايد (تلمسان)، 2007م.

- الوسيط في الحضارة الإسلامية عماد الدين خليل، فايز الربيع، دار الحامد عمان (الأردن)، ط1، 2004م.

الفهرس

فهرس الموضوعات

مدخل:..... 01
الفصل الأول: العمارة الإسلامية بصفة عامة: 11
المبحث الأول: الفتح العربي لبلاد الأندلس: 11
1- معنى لفظ الأندلس: 11
2- حملة طارق بن زياد: 13
3- حملة موسى بن نصير:..... 19
المبحث الثاني: أهم المنجزات البارزة في الحضارة الأندلسية: 21
1- قصر الحمراء: 21
2- قصر جنة العريف: 34
3- منارة لاخيرالدا:..... 38
4- برج الذهب:..... 48
المبحث الثالث: تأثير العمارة الأندلسية على باقي العمارة في الدول الأخرى:..... 49
1-التأثيرات القرطبية في الفنون المعمارية المسيحية:..... 51
2- التأثيرات القرطبية في الفنون المعمارية الإسلامية:..... 54
الفصل الثاني: العمارة في الحضارة الأندلسية على عهد الخلافة الأموية:..... 59
المبحث الأول: نبذة تاريخية عن الدولة الأموية في الأندلس:..... 59
المبحث الثاني: نماذج عن العمارة في العهد الأموي:..... 74
أ- العمارة الدينية: المسجد الجامع بقرطبة:..... 75
ب- العمارة المدنية: قصر الوصافة:..... 85
ج- العمارة العسكرية: سور قرطبة:..... 88
خاتمة:.....